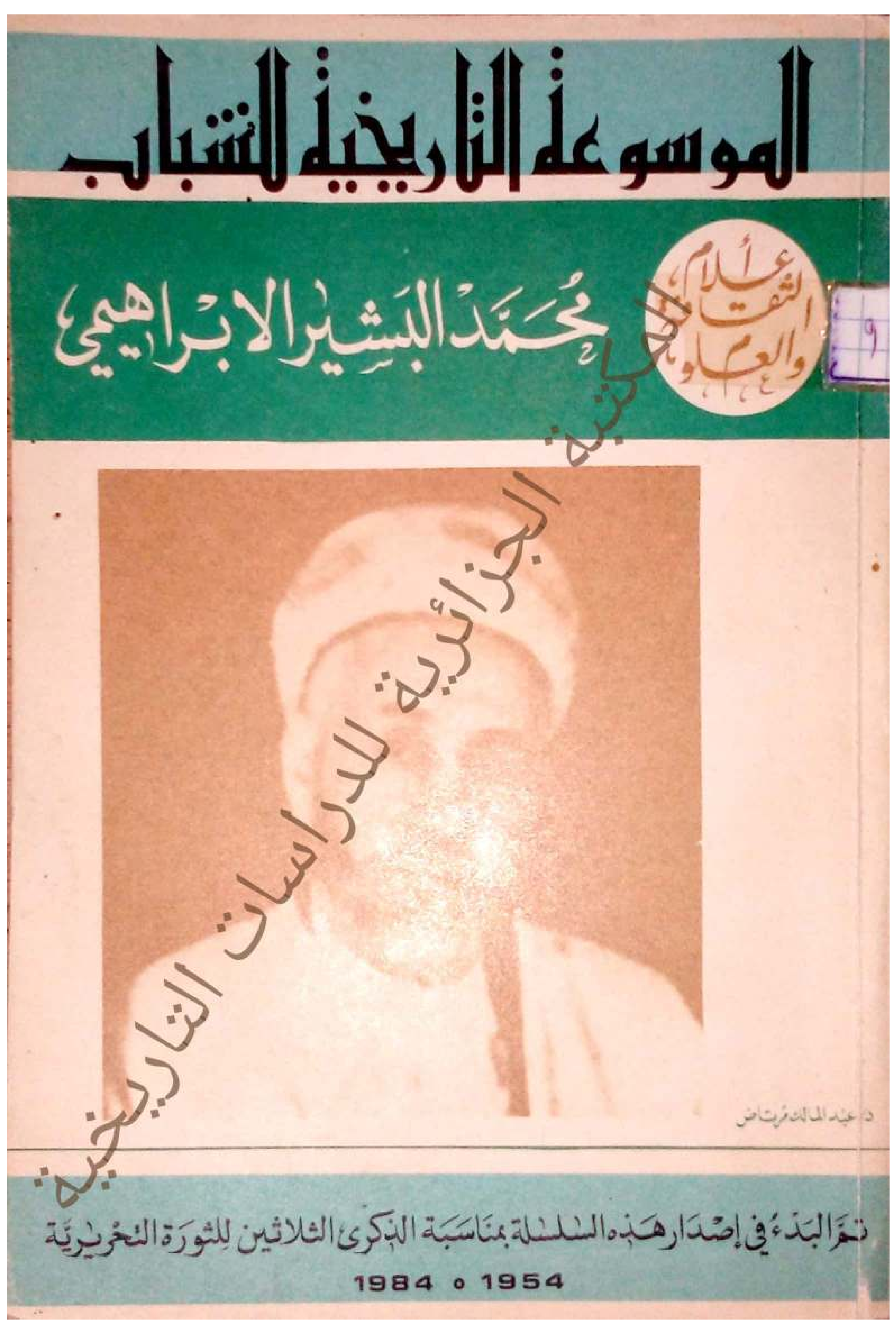

الموسوعة التاريخية للشباب
أعلام الثقافة والعلوم
محمد البشير الابراهيمي
د. عبد الملك مرتاض
تم البدء في إصدار هذه السلسلة بمناسبة الذكرى الثلاثين للثورة التحريرية
1954 ـ 1984
المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية

د/ عبد المالك مرتاض

محمد البشير الابراهيمي

1889 - 1965

منشورات وزارة الثقافة والسياحة
مديرية الدراسات التاريخية واحياء التراث: الجزائر

هذه الموسوعة التاريخية للشباب تهدف الى تعميم الثقافة التاريخية الوطنية في أوساط الشباب الذي يبدو اليوم أكثر تعطشا للمعرفة عامة وللتاريخ خاصة .

وإن توافق إصدار هذه الموسوعة مع احتفالات الذكرى الثلاثين للثورة التحريرية الكبرى ، لمن شأنه أن يبعث فينا روح التطلع الى مواصلة هذه المسيرة من أجل تحقيق أهداف الثورة كاملة ولأجل بلوغ الغاية القصوى المتمثلة في الثورة الثقافية الشاملة .

د . محمد الطاهر العدواني

الاشراف الفني حسين بروبة

فـاتحـــة

لا شيء أشد اعتياصا على القلم من أن يتناول حياة الرجال وآثارهم ، ويعرض لمواقفهم ومآثرهم ، فيتعهدها بالتحليل ، ويتولاها بالتفصيل . وقد يشتد هذا الاعتياص حتى يرتجف له القلم فتضطرب به الأنامل إذا جاء يكتب عن شيخ ظلت الكتابات حوله ، على كثرتها النسبية ، ضئيلة الدقة : تحوم ولا تقع . أو تقع ، ولكنها لا تباشر وقوعها على الغاية .

أما نحن فعلينا أن نعترف بأنه لا شيء أثقل على نفسنا ، ولا أشد وطأ عليها من أن نعرض لحياة علم من أعلام الأدب ، أو السياسة ، أو التاريخ ، أو العلم ، (فإنما ذاك شأن المؤرخين والمتقصين لسقطات الناس وزلاتهم ، والمتتبعين لمواقفهم البارزة بوجه عام ... وإنما سبيلنا نحن على آثار هؤلاء الرجال وحدها . ولا سيما إذا كان موضوع هذه الآثار

أدبا ... فلتكن دراستنا هذه للشيخ من خلال أعماله لا من خلال تعلمه ، ثم من خلال نشاطه الفكري ، لا من خلال سلوكه ، ثم من خلال مواقفه لا من خلال أفعاله . فإن رأيتنا تنكبنا عن هذه السيرة فذلك حتما من سقطات هذا القلم وزوغان هذا الفكر .

والحق أننا كنا تحدثنا عن الشيخ في أكثر من موطن ، في أكثر من كتاب من كتبنا : فقد كنا اختصصناه بفصل كامل في كتابنا «نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر» ، وذلك في أول عهدنا بدراسة الأدب الجزائري الحديث . كما كنا نشرنا حوله دراسة مطولة في مجلة «الجيش» الجزائرية بعنوان : «مع الشيخ الإبراهيمي» ، منذ أكثر من عشر سنوات . وهذا كله ليس شيئا إذا قيس بما أفردناه به في كتابنا «فنون النثر الأدبي في الجزائر» حيث نال حيزا فيه واسعا . ولم نجئ إلا بعض ذلك حين حررنا رسالة دكتوراه الدولة التي قدمناها إلى السوربون حول أجناس النثر الأدبي في الجزائر (1931 ـ 1954) حيث توقفنا طويلا لدى نماذج من كتاباته الأدبية وحللناها محاولين نقل نماذج منها إلى قراء الفرنسية . وكنا انتهينا هنالك إلى أن الشيخ يعد صاحب مدرسة أدبية في الجزائر تمتاز بخصائص فنية متميزة .

فليس الشيخ إذن ، من هذه المناحي كلها ، غريبا

عني في شيئ ؛ فلطول السواد ، وفرط العشرة الأدبية أصبحت شديد الحب إلى أدبه ، وطريقة كتابته التي استطاع أن يحيي بها ، مع الاحتفاظ بشخصيته ، أساليب اللغة العربية في أزهى عصورها ، وأنقى فصاحتها ، وأفتن جمالها : حيث أمسى أسلوب جريدة البصائر ناضرا مشرقا ، بعد أن ظل الأسلوب العربي في الجزائر يعاني من بعض الركاكة ما يعاني . فبعد الزاهري ، وابن باديس ، والمدني ، وحوحو ، وابن عاشور ، والجلالي ، والميلي ، جاء الشيخ ليجسد تلك الحركة الأدبية النشيطة ويبلورها ، ويجعل منها مدرسة أدبية حقيقية ذات خصائص جميلة أصبحت مثار إعجاب في المشرق والمغرب . وإذا كنا مقتنعين بأن جريدة البصائر ظاهرة فريدة في تاريخ الصحافة الجزائرية تمتاز بخصائص لا تتوافر في أي جريدة أخرى ، فإن وراء تلك الظاهرة كان أديب كبير هو محمد البشير الإبراهيمي الذي غذاها بقلمه ، وأثراها بفكره .

فبعد أن كنت كتبت عن الشيخ ما كتبت ، في مواطن مختلفة ، وعبر أزمنة متباعدة ، بالعربية والفرنسية جميعا ، لم تكن النفس تحدثني بالكتابة عنه تارة أخرى . بيد أن رسالة وزارة الثقافة والسياحة إلي ، والطلب إلي أن أتناول واحدا من موضوعات وعناوين وأسماء اقترحتها اقتراحا ،

ومنها الإبراهيمي ، جعلتني أغير رأيي السابق ، وأحنّ إلى معاودة العشرة الشيخية .

إنما كيف أكتب ؟ وماذا أكتب ؟ ثم لمن أكتب ؟

أما الإجابة عن السؤال الأول فقد كفتنا رسالة وزارة الثقافة والسياحة حيث حددت الموضوع ، كما حددت الحجم الذي في إطاره يقدم فيه بحيث لا يقل عن ثمانين صفحة ، ولا ينيف عن مائة وعشرين . وأما الإجابة عن السؤال الثاني فهي المعضلة التي أرقتني قبل الشروع في تحريك هذا القلم .. فشخصية الإبراهيمي شخصية غنية بالأعمال ، وثرية بالمآثر ... فهل كان يجب أن نتناولها من حيث ما هي سياسية ، أو تربوية ، أو إصلاحية ، أو أدبية ، أو من هذه الأوجه جميعا ؟ ويبدو أننا آثرنا الاختيار الأخير .

أما لمن أكتب : فهذه أيضا معضلة ، بل هي معضلة المعضلات ؛ إذ لا تتحدد الكتابة إلا إذا تحدد القراء ، أو ، على الأقل ، يجب أن يفترض ذلك في أي عمل أدبي ، أو حتى دراسة كهذه . ولكن هذه المعضلة زالت من سبيلنا ، إذ فهمنا من رسالة وزارة الثقافة والسياحة أن مثل هذه الدراسة تكون موسوعة أو شبه موسوعة موجهة إلى جمهور عريض من القراء غير مختص في الأدب والتاريخ على نحو أعمق .

من أجل هذا الاعتبار أذنا لهذا القلم أن يجري في جميع تلك المضطربات التي أومينا اليها آنفا وذلك لكيما نرسم صورة واضحة ، أو قريبة من الوضوح ، في أذهان هذا الجمهور غير المظنون بالاختصاص والصفات الأكاديمية ، كما أسلفنا القيل . ولعل هذا الاعتبار أيضا هو الذي دفعنا إلى التغاضي عن بعض الإحالات ، والتساهل في كثير من القيود المنهجية الصارمة التي نلزم بها أنفسنا حين لا نخاطب إلا الجامعيين المتحذلقين ، والدارسين المتقعرين ، والنقاد المتفيهقين .

فعسى أن تساهم هذه الدراسة البسيطة ، القاصرة ، تارة أخرى ، في إثراء المكتبة الجزائرية التي أنشأت مضطرباتها تتسع . وعساها أيضا أن تفضي ، مع سواها من الدراسات الأخرى التي تكملها وتثريها ، إلى نفض الغبار عن تراثنا ، وتزيل من فوقه ما ران عليه من قتام : فيبلج الطريق ، وتستقيم الجادة ، ويحصحص التفكير ، وتتعمق الرؤية ، وتتضح الصورة ، فيغدو لثقافتنا الوطنية شأن أعظم ، ومكانة بين الثقافات الإنسانية أسمى وأضخم : ثقافة تقدمية ، متفردة ، رائدة ، قائدة ، متحررة ، محررة . وما تحقيق ذلك على أبناء ثورة نوفمبر العظيمة بعزيز .

عبد المالك مرتاض

جامعة وهران

الفصل الأول

-* * -*

الابراهيمي مربيا

-* * * * * * *-

لقد نعلم أن الإبراهيمي انتصب للتدريس وهو في سن الرابعة عشرة . ولعل انصرافه إلى مهنة تعليم اللغة العربية وبعض آدابها ، في الجزائر والمشرق ، ثم تدريسه للفقه والأصول ، ثم تفسيره للقرآن الكريم ، وتقريره للأصول ... جعل منه مربيا بحكم المهنة أولا ، ولكن بحكم كوامن نفسية أخرى أيضا ثانيا . فقد كان يهوى هذه المهنة حتى التفاني ، ويعطف على أهلها حتى التضحية . أو ليس الشيخ ظل الأب والمربي لجيل بأسره دون أن ينازعه في هذه الأبوية أحد ؟ ولا نحسب أن هذه الأبوية كانت قائمة فيه بالمعنى الاستعلائي المشبوب بالتعجرف ، وإنما كانت قائمة في نفسه ، وجاثمة في جوانحه ، لأنها عنصر طبيعي يشكل جزءا من كيانه الروحي . ذلك بأن الشيخ كان يحب جيل المعلمين الأحرار الذين كانوا ينشرون اللغة العربية ويناضلون من أجل تعليمها للنشء الصاعد . كما كان المعلمون

والمتأدبون يسلمون له بهذه الأبوية التي كانوا يعدونها خاصية من خصائص الشيخية التي ترعرعت معه ، وترسخت فيه ، وترسبت في أعماقه ، منذ رحلته إلى المشرق العربي ... هذا المشرق الذي آب منه بعد أن جاب أقطاره ... من مصر إلى الحجاز إلى الشام ... حيث النوى استقرت به ، وحيث انتصب هناك لتدريس اللغة العربية وآدابها بالمدرسة السلطانية بدمشق ، وحيث مكث مدرسا بها طوال أربع سنوات ظل خلالها الأستاذ الناجح ، والمربي المرموق : إذ استطاع أن يحبب الأدب العربي القديم إلى قلوب الطلاب بدمشق باعتراف أحد أبرز تلامذته في تلك المدرسة يومئذ وهو الدكتور جميل صليبا .. وإذا علمنا بأنه تبوأ كرسي الأستاذية في هذه المدرسة العليا وسنه لا تجاوز السادسة والعشرين علمنا بمدى عمق الثقافة التي كان قد اكتسبها وهو لا يبرح في ميعة الشباب ، وأوج الفتاء . ولعل ذلك يعود إلى ذاكرته القوية التي كانت لا تكاد تعلق شيئا إلا عقدت عليه ، ولا يكاد شيئ يمر بها إلا تسجله تسجيلا ، فإذا الإبراهيمي من أحفظ أهل زمانه إطلاقا .

ومن العوامل الخارجية التي جعلت الشيخ رائدا للمربين في الجزائر فيكون في طبقتهم الأولى ، إنه كان مقتنعا ، فيما يبدو ذلك من كثير من كتاباته ، هنا وهناك ، بأن الشعب

الجزائري لا يرقى ، وينجو من شر شقاوته ؛ ولا يسعد ، ويجاوز سوء مصير محنته ، إلا إذا أخلد إلى العلم ، وتعلق بالتعلم تعلق الظمى بالماء الزلال . وليس الأمر هنا يتعلق بأي تعلم فحسب ، بل بتعلم متطور ، عصري ، يكون قادرا على منافسة تعلم الغرب ؛ فيفضي ، من أجل ذلك ، إلى رقيّ الشعب وتطوره . وكذلك ألفينا الشيخ ، وقد كان جاء ذلك ابن باديس مزامنا له في بعض مراحل حياته ، يصب معظم جهوده وتوجيهاته على التعليم وإصلاح برامجه ، وتطوير طرائقه ، وعلمنة مواده ، وتقديمه إلى الناشئة في برد قشيب يعجبهم ، وحلة جديدة تبهرهم وتفتنهم فلا ينفرون منها ، بل يتعلقون بها تعلقا شديدا . كان يحرص أشد الحرص على أن يقدم اليهم المادة التعليمية في صورة طبق لذيذ الطعم ، ان تناولوا منه شيئا لم يشكوا هزالا ولا تسمما .

ولقائل أن يفترض بأن الشيخ إذا سلمنا بهذا ، وليس علينا إلا أن نسلّم به : لأنه ثابت بالبرهانات الدامغة ، وواقع بالأدلة القاطعة ـ يكون حتما تأثر برحلته إلى المشرق العربي حين وفد على شيوخ للعلم هناك فناقشهم وناقشوه ، وحاورهم وحاوروه ، وأخذ عنهم كما أخذوا عنه ، وأعجب بهم كما أعجبوا به : كالشيخ سليم البشرى ، ومحمد بخيت ، ويوسف الدجوى بمصر ؛ والشيخ عارف حكمت ،

وأحمد البرزنجي ، ويوسف النبهاني بالمدينة ؛ والشيخ جمال الدين القاسمي ، ومحمد بهجة البيطار ، ورشيد رضا بدمشق .

ونحن وإن كنا نقر بهذا التأثر إقرارا ، إلا أننا نميل إلى أن الإبراهيمي قد يكون تأثيره هناك أكثر من تأثره . والآية على ذلك أنه انتصب للتدريس بالمدينة (عيون البصائر ، 640) وسنه يومئذ لا تجاوز الخامسة والعشرين . وفتى في هذا العمر الغض ينافس الشيوخ مآقطهم ، والأئمة مكاناتهم ، على إلقاء الدروس وارتجال المحاضرات بالحرم النبوي لحقيق بأن يتبوأ في ساح العبقرية مضطربا مكينا . وذلك ما حدث من بعد .

ونحن حين زعمنا بأن الشيخ تأثر بالديار المشرقية أقل مما أثر فيها ، لم نزعمه من باب المكابرة ، ولا من باب حب المهاترة ، وإنما أقمناه على كتابات الشيخ ونتاجاته الفكرية والإبداعية معا . ولا نحسبه فيها إلا مقررا لبعض الحق . فقد كتب يوما ، في معرض هجومه على عبد الحي الكناني ، بأنّ الشيخ أحمد البرزنجي لمّا نمي اليه من حفظ الإبراهيمي ولزومه لدور الكتب عليه الإجازة العلمية التقليدية ، على ديدن شيوخ العلم وفقهاء الشريعة إلى ذلك العهد . بيد أن الشيخ تأبّى في شيْ من اللطف المشوب بالعنف ، مجيبا البرزنجي : «إنك لم تعطني علما بهذه الجمل ، وأحر أن

لا يكون لي ولا لك أجر ، لأنك لم تتعب في التلقين ، وأنا لم أتعب في التلقي . فتبسم ضاحكا من قولي ، يقر الشيخ ، ولم ينكر ...» (م . س . ، 615) .

أما يوسف النبهاني الذي كان معتكفا بالحرم النبوي ، هو أيضا ، فقد كان يحضر بعض دروس الإبراهيمي . وقد أعجب يوما بتحليل الشيخ في معرض حديثه عن السيرة النبوية حيث أنحى باللوائم «على مؤلفي السير في اعتنائهم بالشمائل النبوية البدنية ، وتقصيرهم في الفضائل الروحية ...» (م . س . ، 617) . وقد أجاز الشيخ النبهاني الفتى الذي رفض هذه الإجازة منه هو أيضا قائلا : «أنا شاب هاجرت لأستزيد علما ، وأستفيد من أمثالكم ما يكملني منه . وما أرى عملكم هذا إلا تزهيدا لنا في العلم ، وماذا يفيدني أن أروي مؤلفاتك وأنا لم أستفد منك مسألة من العلم ؟ فسكت ...» (م . س .) .

ولعل هذين الموقفين من سيرة الشيخ في الحجاز يبرهنان على أنه لم يمم تلك الديار طالبا للعلم بالمعنى التقليدي الأعمى ، قدر ما كان يممها وهو يبتغي نشر ما عنده ، كما يبتغي تلقي ما عند غيره ، داعيا للإجتهاد ، متعصبا للاستدلال ، ناقدا للفكر الديني المتخلف ، ساخطا على الفكر الصوفي الجامد ، مناديا بفكر ديني متحرر. ومن الآيات

على ذلك أنه وهو يدارس السيرة النبوية جاء إلى العلماء الذين استنزفوا جهودهم في الأوصاف الجسمانية للنبي عليه الصلاة والسلام فنعى عليهم ما كانوا يفعلون . ذلك بأنه كان أولى لهم أن يصبوا جهودهم على شمائله الروحية ، ويعتبروا من أخلاقه ... ونلفي الشيخ في الحالين يأبى أن يقبل الإجازة العمياء ، على دأب العلاقات العلمية التي كانت قائمة بين الشيوخ والشباب ، أي بين المعلمين والمتعلمين ، على ذلك العهد . وينتقد الشيخين اللذين همّا بإجازته . وقد اقتنع الشيخان معا آخر الأمر برأيه ، ولزما مجالسه .

ولعل قائلا أن يقول : وما شأن ما نحن فيه بالتربية في سيرة الشيخ ؟ ونحن نزعم بأنه لا شئ أولج في التربية ولا أدخل في مناهجها ، ولا ألصق بطرائقها الحديثة من هذين الموقفين اللذين وقفهما الإبراهيمي مع شيخين من شيوخ العلم الكبار بالحجاز . فرؤية شيخنا رؤية تربوية ، لا ريب ، متحررة ، بالقياس إلى ذلك العهد ، وفي ذلك البلد . فرفضه الإجازة يعني رفضه الصريح للطرق البيداغوجية التي كانت سائدة يومئذ وهي بالية ، وجاثمة على أذهان الناس وهي راشية . ولكن ذلك الرفض ، في رأينا ، يعني شيئا آخر وهو تأثير الشيخ في معاطن العلم ، ومآقط الثقافة ، هنـاك .

وليس فيما زعمنا أي شيئ من العجب ، فقد كان لمعظم الجزائريين الذين وفدوا على المشرق العربي مواقف مشرفة ، وسير ثورية تشد من أزر المواقف التي ذكرناها للشيخ . وقد حدثني بعض الشيوخ اليمنيين أخيرا في صنعاء ، بأن الشيخ الفضيل الورتلاني لما يمم الديار اليمنية ، إنما يممها ليمهد لثورة ينهض بها الشعب اليمني هناك على نظام الإمامة المترهل الذي كان الزمن أكل عليه وشرب حتى هرم ، وبلغ من سن الأنظمة السياسية البالية عتيا ، وأمسى غير قادر على التفاعل مع العصر ، ولا متعلق بالتطور الذي تعلقت به الشعوب المتقدمة فطارت ، وسادت ... ولقد كان الورتلاني يأتي ذلك في خطب الجمعة بصنعاء ، ويفسر بعض الآيات القرآنية على نحو يفضي بتأويلها إلى إصلاح سياسي ، بل إلى انقلاب سياسي يهور نظام الإمامة الهرم المتخلف . وقد حدثت بهذا في مجلسين من مجالس العلم التي تعقد بصنعاء ، وذلك في شهر أبريل من سنة أربع وثمانين من هذا القرن . ولقد يزيدنا هذا اقتناعا بأننا ، إلى اليوم ، لم نكتب تاريخ رجالاتنا (كما لم نكتب تاريخ ثوراتنا) ، ولم ننصفهم فيما نهضوا به من جهود ، ابتغاء تحريك الهمم الخامدة ، والعزائم الهامدة ، والمطامح الباردة .

ولقد أغرت مواقف الورتلاني الثورية الإمام بسجنه ،

ثم إطلاق سراحه . وقد دبج الإبراهيمي حول هذا الاعتقال ودوافعه مقالة نعى فيها على الإمام ما كان فيه نظامه السياسي من تخلف وتعفن وتهرؤ (عيون البصائر ، 679 وما بعدها) .

وهذه مجرد استطرادة ، ولنؤب الآن إلى ما كنا فيه فنقول : نحن لم نقرر ما قررناه من أن الشيخ كان مربيا أولا ، ومتطور الرؤية إلى التربية حديثها ثانيا ، إلا على هدى من قراءاتنا لآثار الشيخ . ويتجسد هنا الرأي في محاور منها :

1 ـ إنشاء مدارس للتعليم العربي .

2 ـ انتقاد مناهج الزيتونة وطرق تدريس أساتذتها .

3 ـ التعليم العربي في الجزائر وموقف الاستعمار منه .

وفيما يلي محاولة لتحليل بعض هذه المحاور ومعالجتها بشيء من التفصيل .

1 ـ إنشاء مدارس للتعليم العربي في الجزائر :

كان الاستعمار الفرنسي ، بحكم الطبيعة والغاية والطوية ، والتركيبة التاريخية التي ركبت فيه حتى أصبحت فيه جبلة ، وله سيرة ، يحرّم تعليم اللغة العربية في الجزائر عبر مواقف تاريخه الطويل بوطننا المبتلى بشروره ؛ فكان يحاربها طورا بالحيلولة دون تلقينها للناشئة ، وطورا بالتضييق على الوعاظ المتحررين الذين كانوا يرفضون أن يكونوا

موظفين لديه ، وطورا في صورة الصحف الوطنية التي كانت تتخذ لها من العربية لسانا ، وطورا في التقتير على المطابع التي آثرت الحرف العربي لتطبع به ، وطورا آخر بشد الوثاق ، وتضييق الخناق ، وتغليق الآفاق على المعلمين الذين اصطلح على تسميتهم يومئذ في الجزائر ، بالأحرار. وهم الذين كانوا يعلمون اللغة العربية في المدارس الوطنية الحرة فإذا هم يسجنون ويزدرون ويهانون . وهم الذين كانوا يصبرون على ذلك ويصابرون . ونحن إنما آثرنا عدم الإحالة على المصادر التاريخية التي تشد من أزر كل جزء من أجزاء هذا الحكم الذي أطلقناه هنا ، لعلمنا بأن هذه القضية لم تعد مما يختلف فيه المؤرخون النزهاء . فالصحافة الوطنية التي أتيح لها أن ترى شيئا من النور على عهد الاستعمار الفرنسي في الجزائر حافلة الصفحات بمثالب هذا الاستعمار ، مكتظة الأساطير بمساوئه وجرائره وفضائحه ومخازيه التي إن شاء مؤرخ تعدادها أعجزته كثرتها .

وفي خضم تلك الحرب التي شنها الاستعمار الفرنسي على اللغة العربية في الجزائر حاول الوطنيون ، ولا سيما حزب الشعب الجزائري الذي اتخذ له أسماء أخرى ، من قبل ومن بعد ، (للحظر الذي كان الاستعمار ضربه على نشاطه ، فكان هذا يجلب عليه ولا يرعوى ، وكان ذاك يغير اسمه

الظاهر ، ولا يغير مبدأه الباطن ، شأنه في ذلك شأن الصحف العربية في الجزائر أيضا على ذلك العهد حين كانت تصادر ، فكانت العناوين تتغير تواليا ، ولكن المبادئ والمضامين كانت تظل على سيرتها الأولى من الثبات ؛ تريم الجبال الرواسي ولا تريم هي قيد أنملة) ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ؛ فهاتان الهيئتان الوطنيتان هما اللتان كانتا تتنافسان في جيئة هذا الخير ، وتتسابقان في نيل هذا الفضل ، فلم تشرق الغزالة على مدينة من مدن الجزائر ، يوم فاتح نوفمبر من سنة أربع وخمسين من هذا القرن ، ويوم اندلاع ثورة التحرير العظيمة ، إلا وفي كل منها من مدارس جمعية العلماء ، وحزب الشعب الجزائري ، ما تدرس فيه الناشئة الجزائرية ، وتتلقى في رحابه الثقافة الوطنية الأصيلة ، ذات المنابع العربية الإسلامية الأثيلـة .

ونحن هنا إنما سبيلنا على مدارس جمعية العلمـاء لارتباطها بالشيخ وارتباط الشيخ بها خصوصا . فلم نر مدرسة من هذه المدارس العربية في الجزائر ، والتي كانت توصف بصفة «الحرة» تؤسس ، ولا سيما بعد وفاة عبد الحميد بن باديس ، إلا وله في إنشائها فضل جمّ ، وسعي دئر . ولعل أعظم هذه المدارس إطلاقا ، وأعمقها أثرا ، إنما هي مدرسة دار الحديث بتلمسان التي كان له في انجازها

اليد الطولى . وقد سجل التاريخ بأن هذه المدرسة أمست تخرج المثقفين وأولي الأذواق الرفيعة في تشرّب منابع الأدب العربي في أنقى صوره ، وأرقى أساليبه ، وأعذب بيانه . ولقد كان لتأسيسها فعل واسع في حفظ اللغة العربية وانتشار استعمالها الفصيح في الغرب الجزائري كله .

ولا يبرح الكرسي الذي كان الشيخ يلقي من عليه دروسه ومواعظه محتفظا به في تلك المدرسة إلى يومنا هذا ، اعترافا بفضله الدثر ، وتقديرا لعلمه الثّرّ .

وقد كان تدشين هذه المدارس العربية مناسبة ثقافية يتخذ منها المثقفون الجزائريون عيدا أدبيا فاخرا ، بل مهرجانا ثقافيا ضخما : تهدر فيه شقائق الخطباء ، وتهتاج له أخيلتهم الخلاقة فكنت تستمع منهم إلى خطب بليغة تضوع ثناء على الكرماء من الشعب الذين سخت أيديهم فموّلت تلك المدارس . كما كانت تلك الخطب والقصائد تندى عطرا على المصلحين الذين سعوا إلى تأسيسها بالتفكير والتوجيه . ويتجلى ذلك خصوصا في تأسيس مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ، ومدرسة دار الحديث بتلمسان ، والمدرسة العربية بباتنة التي أنشد فيها محمد العيد آل خليفة رائعته التي قد يكون بها وحدها شاعرا ، وذلك أمام الشيخ الذي كان

طعن إلى افتتاحها . وكان ذلك سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وألف ، ومطلع الرائعة العيدية :

بباتنة صوت البشائر لعلعا فأطرب أوراسا بها والشلعلعا

ولقد كان يقترن افتتاح كل مدرسة عربية حرة بالجزائر بإلقاء خطب ، وإنشاد قصائد ، فكان التزاوج يتم بين البيداغوجيا والأدب ، كما كان التمازج يقع بين المعلومات الملقنة ، والثقافة المعمقة ، فينعكس ذلك على تلاميذ تلك المدارس فتفصح ألسنتهم ، وتنتق قرائحهم ، وتفحل أساليبهم ، وتتعمق معارفهم فإذا هي ليست تحصيلا قاصرا لمعلومات تقليدية ، وإنما هي علم وثقافة ، وتعلم وأدب ، وتفتّح وتذوق ، وتوثب وتطلع ، جميعا . ولقد ظل عدد المدارس فتصفح ألسنتهم ، وتتفق قرائحهم ، وتفحل وكان في كل ذلك للشيخ ، كما أسلفنا القال ، يد ، أو سعي ، أو رأي ، أو توجيه .

وكذلك مضت الحركة الإصلاحية ، بقيادة الإبراهيمي ، حثيثة في تأسيس «المدارس العربية حتى بلغت خلال السنة الدراسية خمسين ـ إحدى وخمسين (من هذا القرن) ستا وعشرين ومائة مدرسة ، أكبرها مدرسة دار الحديث بتلمسان التي بلغ عدد معلميها عشرة . وقد بلغ

منه العظام ، ويستنزف له الأقوات ، ويستولي له على الأرزاق فإذا الثراء العريض الذي كان يرفل فيه يمسي فقرا مدقعا ، بل مسغبة ودردقة ، من وجهة أخرى .

فلا شيئ إذن كان أمثل للشعب الجزائري ، وأغني له في معترك الحياة بمظاهرها المختلفة ، من أن يقبل أبناؤه على منابع العلم فيرتشفوا من كأسها الدّهاق حتى يرووا .

2 ـ انتقاد مناهج الزيتونة وطرق تدريس أساتذتها :

كتب الشيخ في مطلع العقد الرابع من هذا القرن في مجلة الشهاب مقالة أفضى به الحديث فيها إلى ذكر التعليم العربي في الجزائر ، وأثارة الصلة التربوية بين المعلم والمتعلم ، أو بين الأستاذ والطالب ، فقرر بأنه قبل ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر كان الشيخ ، (ويقصد الإبراهيمي بالشيخ هنا إلى الأستاذ أو المعلم ، أو المربي) يسلّم لكتابه ما يقول ، وكان الطالب يسلّم لشيخه ما يقول ؛ فكانت الصلة البيداغوجية قائمة بين هذه الأطراف الثلاثة على شيئ من الانصياع الأعمى ، والنفاق الأشقى ، أو التبلد الذي كانت تلك الطريقة البيداغوجية الرثة تفرضه على المعلمين والمتعلمين جميعا . فلا الشيخ كان قادرا على مناقشة كتابه الذي كان يستمد منه معارفه التي يبثها بين طلابه ، ولا طلابه ،

نتيجة لذلك ، كانوا قادرين على مناقشة شيخهم فيما يقرره لهم من تلك المعارف الممجوجة . فكان الجمود الفكري هو السائد في التعليم الأصلي في الجزائر قبل ظهور الحركة الإصلاحية ، حسب رأي الشيخ نفسه . فكان التحصيل كثيرا ومضنيا ، ولكن الغناء كان ضئيلا طورا ، ومنعدما طورا آخر .

وإذا كان هذا هو رأي الإبراهيمي فما كنت منتظرا منه أن يجيء حين جاء يوجه المعلمين الأحرار ، في مهنتهم ؟ لقد حث على الاستدلال العقلي ، ودعا بحرارة (ويأتي ابن باديس هنا في المقام الأول) إلى نبذ الاعتقاد الرث الذي يقوم ، فيما يقوم عليه ، على التلقي الأعمى ، والتمسك باعتقاد متفتح قائم على الغربلة والشك والتفكير .

وما جاءت هذه الدعوة نفخا في رماد ، ولا صرخة في واد ، بل كانت ذات آثار نافعة في المجتمع الجزائري . فبعد أن كان الفكر الصوفي ، وقد أصبح على ذلك العهد شديد التخلف إلى درجة السقوط ، يشيع بين الناس شعار «اعتقد ولا تنتقد» . فجاء الشيخان فقلبا هذا الشعار الفاسد فإذا هو «انتقد ولا تعتقد» . وإذا هو ثورة في عالمي الفكر والفكرفي الجزائر . فقد غدا غير محرّم أن ينتقد المرء ما

لا يعجبه من الأفكار ، ويرفض ما لا يستسيغه من الآراء ، ويمحّص ما يستسمحه من القيم البوالي ، الضاربة أطنابها في العهود الخوالي ، والتي ان كانت لائقة بالأجداد ، فهي ليست كذلك بالقياس إلى الأحفاد .

ومما عاب الشيخ على المقلدين (وتقليدهم لم يك في حقيقة الأمر وقفا على التفكير ، وإنما جاوزه إلى شؤون أخرى من الحياة ، ولا سيما التعليم) أنهم هوّلوا من أمر الاجتهاد فجعلوه أمرا لا يمكن إدراكه ، وإنما هو وقف على القدامى وحدهم . وكل من حاول أن يجتهد في بعض فروع الدين فهو حتما مبتدع . وبذلك أوصدوا باب هذا الاجتهاد وأيأسوا منه أهل زمانهم ، مع أنه واسع لا يوصد ، لقد حرّموه على المتأخرين زمانا ، فحرموا الناس ، ظلما ، من لذة التفكير ، ومتعة الانتقاد ، وعذوبة الاجتهاد ، فحرموهم من خير وفير . لم يك أحد من التقليديين ، أو المقلدين الجزائريين (وهم يومئذ خصوصا أئمة المساجد الرسميين (أي الأئمة الذين كانت السلطات الاستعمارية توظفهم وتغدق عليهم) ورجال الطرق الصوفية) يجرؤ على التفكير في تغيير الكتب المدرسية ، أو تغيير الخطب الجمعية ، أو محاولة الإفادة من التطور المذهل الذي أصاب العالم الخارجي فقلب الموازين ، وغير

المعايير ، وبدل المفاهيم . لقد تغير وجه الحياة تغيرا كاملا ، إلا أولئك المقلدين فقد ظلوا على جمودهم القديم .

ويتضح الرأي التربوي للشيخ في مقالة دبجها حول الطاهر بن عاشور فأشاد بما بذل من جهود في سبيل إصلاح جامع الزيتونة . وعلى الرغم مما بذل ، فقد ظلت تلك المؤسسة التعليمية الكبرى مفتقرة إلى إصلاح . ويقول الشيخ بهذا الصدد :

«والحق أن في الجهاز التعليمي بجامع الزيتونة خللا يحتاج إلى الإصلاح ، وعللا يجب أن تزاح ، ونقائص يجب أن تعالج ، وتوافه من النظم يجب أن تلغى . وكلها بقايا من إصلاح خير الدين ، لم تعد تصلح لخير العلم ولا لخير الدين» (عيون البصائر ، 621 ـ 622) .

فالشيخ في هذا النص ينتقد الطرق البيداغوجية البالية التي كانت سائدة في معاهد التعليم الأصلي وجامعاته الثلاث الشهيرة : القرويين والزيتونة ، والأزهر . ونلفيه يحث على نبذ هذه التقاليد التربوية العفنة التي لم تعد تساير الحياة ، ولا الحياة عادت تسايرها ؛ فمضى كل منهما في واد . فمناهج تربوية تعود إلى عهد إصلاحات خير الدين لما قدم به العهد حتى أصبح ضالاً سبيله . ومثل ذلك لم يعد قادرا

على الاستجابة لا لمصالح الدين ، ولا لمصالح الدنيا . وساء ما كان كذلك حالا .

ونلفي الشيخ بعد ذلك ينعى على رجال الزيتونة نظامهم البيداغوجيّ المنهار الأركان ، الخائر الأوصال ، فيقرر بأن ذلك النظام قد أدانه الزمن ، وطلقه الشباب ، وزهدت فيه الحياة ، ورغب عنه التاريخ الذي لا يرحم المتخلفين والمخلّفين ، ذلك بأن دورة الزمان لا تؤوب إلى وراء أبدًا : فإذا اطمأنّ بعض أصدقائنا وإخواننا ، يقرر الشيخ ، من علماء الزيتونة إلى ما كان ، على ما كان ؛ فليعلموا أن وراءنا من الزمن سائقا عنيفا حطمة ، يستحثّ البطاء ، ولا يغضّ من أعنة العجال ؛ وأن بين أيدينا ودائع من شباب متطلع إلى الكمال ، تواق إلى السبق ، حريص على دقائق عمره أن تنفق إلا فيما ينفق . وهو يريد أن يكون كزمنه ، وأبناء زمنه . وزمنه ثلاثة : جد واتقان ونظام . وأبناء زمنه أحالهم العلم عقبان جوّ ، وغيلان دوّ . وفرضت عليهم الحياة أن يأخذوا الكثير من العلم ، في القليل من الوقت» (م . س .) ، .

فالشيخ هنا في معرض انتقاد الطرق البيداغوجية التقليدية إنما يرسم مبادئ عامة للتربية الحديثة التي يتمثلها ، فيحصرها في عناصر محدودة فإذا منها :

1 ـ ان من الظلم ، بل من الجرم ، أن نضيع أوقات شبابنا بتلقينهم علوما تقليدية ، ومعلومات بالية الاهاب ، سملة الثياب ، من حيث يلقن الغرب شبابه علوما عصرية ، مدققة ، نافعة ، أمشى مع سيرة الحياة ، وألأم لطبيعة العصر الذي يحيونه فإذا هم إن شاؤا كانوا عقبان جوّ ؛ يقودون الطائرات في السلم ، ويقاتلون بها في الحرب ، ويتخذونها ركائب يمتطونها . وان شاؤا كانوا غيلان دوّ ؛ بالتحكم في الطبيعة القاسية ، والقدرة على مغالبتها فإذا هم ينهبون مجاهلها بوسائلهم التقنية التي اخترعوها فتراهم في الحرب يمتطون الدبابات ويقودونها ، وينفثون من فوهاتها الأنوار كالغيلان التي جاءت بها أساطير الأولين ، أو كالسعالي الشريرات اللواتي زخرت بهن خرافات الشعوب . كما تراهم في السلم يشقّون الطرقات ، وينصبون الجسور ، وينجزون من الأعمال أكبرها ، ومن المشاريع أضخمها ، فينشأ لما ينجزون في المجتمعات خير وغناء .

2 ـ ان من خصائص المناهج التربوية الحديثة أنها تلقّن الكثير من المعلومات ، وتعلم الغزير من المعارف ، في زمن قصير ، وبجهد يسير . ومناهج الزيتونة وما يماثلها ، ويضطرب تحت كوكبها إنما كانت تلقن القليل من

المعلومات ، والتافه من المعارف ـ في معظم الأطوار ـ في زمن طويل ، وبجهد عضلي يضني حتى يفني ، ويعوز ولا يغني . فأما النحو فقد كانت قواعده تدرس بمعزل عن النصوص ، فإذا المتعلم يلوك لسانه بضوابط النحو وقواعده : من حيث هي أصول ونظريات منعزلة عن اللغة العربية وأدبها وتراكيبها الواردة في الكلام : بينما هي في حقيقة أمرها ، إنما هي تعبير ، وأدب ، وثقافة . فإذا جاء يتحدث ، أو يخطب ، أو يكتب ، لم يستطع أن يقول شيئا بدون ارتكاب أخطاء ، وذلك لغياب المراس ، وانعدام التطبيق . وكان على المتعلم أن يتعلم النحو وحده ، والأدب وحده ، وفي الحالين لم يك قادرا على المزج بينهما ، وكأنهما شيئان منفصلان في ضلال بعيد .

وأما العلوم الرياضية ، والطبيعية ، والطبية ، وسائر المعارف الأخرى التي تجدي الناس في الحياة فلم يكن الزيتونيون ، ولا أمثال الزيتونيين ، يحدثون أنفسهم بالتفكير في شأنها ، لاقصارهم عنها اقصارا مبينا . فأين هم من كل ذلك ومناهج تعليمهم لم تكن تتيح لهم أن يتعلموا غير شيء قليل من القواعد والفقه ، والتفسير المعاد منذ مئات السنين ، والمنطق المنعزل عن التفكير والابتكار . وهنا يصدق قول الإبراهيمي في هؤلاء ، وأمثال هؤلاء ، بأن الشيخ كان

يسلم لكتابه ما يقول ، كما كان الطالب يسلم لشيخه ما يقول . فكان الجهد مضنيا ، والغناء ضئيلا .

3 ـ ان من خصائص التربية الحديثة أنها تحرص كل الحرص على الاتقان الشديد ، والنظام الصارم ، والجد المتواصل . وندرك من خلال هذه الخصائص الثلاث التي لاحظها الشيخ وهي الجد والاتقان والنظام ، أن التربية التقليدية كان من خصائصها البالية انعدام الاتقان على الرغم من أن الإسلام كان أمر بالاتقان ورغب فيه ترغيبا (رحم الله من عمل عملا فأتقنه) ، فكانت طريقة الإلقاء لا تراعي المستوى الذهني ولا الثقافي للمتعلمين . فلم تك هذه الطريقة في معظم الأطوار تختلف من أول درس يتلقاه المتعلم في الزيتونة أو الأزهر أو القرويين عنها في آخره . فكأن الطالب الذي كان يدرس في السنة النهائية ، وذلك الذي كان في السنة الأولى ، كانا في مرتبة واحدة من القدرة على التلقي والهضم والإدراك .

كما كانت المعلومات الملقّنة في كثير من الأطوار ، مكررة ، مرددة ، على نحو ببّغائيّ ، لا أثر فيه للإجتهاد ، ولا للإصلاح ، ولا للتعديل ، فيتلاءم مع المستوى الثقافي أو التعليمي للمتلقين . كما يفهم من كلام الشيخ أنّ الجد

كان يعدم ذلك التعليم . وهي خاصية ضرورية حتى تجنى الثمرة المرجوة من وراء ذلك الجهد المضني في التحصيل .

أما انعدام النظام فحدث ولا حرج . فلم يك هناك مناداة للطلاب ، ولا تسجيل لأسمائهم ، ولا ملاحظة على تغيبهم ، وإنما كان الأستاذ يجئ إلى حلقته ، ثم يعيد درسه المكرر عشرات المرات ، والذي لم يك في الحقيقة درسا من ابتكاره أو اجتهاده في شئ ، وإنما كان اجترارا أمينا لبعض ما ورد في الكتب المقررة ، دون إنشاء صلة تربوية تذكر بينه وبين طلابه المبتلين ببلائه ، ودون أي توجيه يذكر كان الأستاذ يوجههم به . فكأن التعلم كان منفصلا كل الانفصال عن المجتمع الذي يعطى فيه . فكان أولئك الشيوخ في القرويين والزيتونة والأزهر (فعلى الرغم من أن الشيخ لم يذكر إلا الزيتونة فإن انتقاده للأزهر والقرويين كان ضمنيا) كالآلات المتحدثة تفرغ ما فيها دون زيادة أو نقصان ، أو دون اتخاذ طريقة تربوية لكل مستوى من التعليم ، ولكل طائف من المتعلمين . وإلا فما قولك فيمن كان يلقن معارف القرن العاشر في القرن العشرين ؟ حتى كأن ذلك التعليم لم يكن يختلف ، في رأينا ، اختلافا كبيرا عن الجهل نفسه ، وذلك إذا ما وزنّاه بميزان ما كانت تلقنه الجامعات والمعاهد العليا في أوربا وأمريكا الشمالية .

ولكن علينا هنا أن ننصف أولئك الشيوخ فنخالف فيما حكم عليهم به ، فهم بحكم ما تلقوه من جامد المعلومات لم يكونوا قادرين على أن يبدعوا ويبتكروا في تعليمهم شيئا . وهو ديدن كان الاستعمار بمختلف جنسياته ، هنا وهناك ، ألزمهم به ، ومرسهم عليه ، وباركه لهم ، حتى يظلوا على ما كان شاء لهم من الجامدين .

4 ـ نجد الشيخ يذكّر الزيتونة بأن زمان الشباب يجب أن ينفق فيما ينفق ، أي فيما تكون له فائدة مادية في سوق الحياة . وما قيمة أن ينفق شاب عمره الطويل في مدارسة الشيخ خليل وحده ، كما كان يجيئ ذلك خلق كثير من المتعلمين في بعض المراكز التعليمية لدينا كمركز مازونة مثلا ؟ فالفقه الإسلامي كان يمكن أن يكون اختصاصا قائما بذاته ، ولكن بعد تلقي معلومات عامة ، والتشرب من ثقافة علمية متنوعة تنير السبيل ، وتفتح الذهن للبحث . أما أن يكون هو غاية علمية من أول الأمر إلى منتهاه ، فذلك ، في رأينا ، خطأ مبين ، بل ضلال بعيد ، ومذهب من التربية غـريـب .

وكأن الشيخ كان يرفض ذلك الشعار التربوي الذي كان يردده أصحاب التعليم التقليدي وهو «طلبنا العلم لغير

الله ، فأبى أن يكون إلا لله» . فكأنما ذلك العلم كان في الحقيقة ، أصلا لله وحده ، لأن المتلقنين كانوا يدركون سلفا وخلفا بأن الاستعمار لا يوظفهم ولا يستعملهم في بعض المناصب الزهيدة (ولم تك إلا دينية خالصة كالإمامة ، والإفتاء ، والقضاء الشرعي في بعض أرجاء الجزائر) إلا إذا أيقن يقينا ، ولم يكن يوقن يقينا إلا في أطوار من شأنه نادرة ، إنهم من أشياعه المخلصين . ثم لأن طبيعة ذلك التعليم ما كانت قط صالحة للحياة والعصر . فلعل ذلك تأويل إيماءة الشيخ إلى طموح الشباب ، وأنهم كانوا حراصا على أن تنفق أعمارهم إلا فيما يجديهم نفعا في الحياة ، فينالون رزقا طيبا من وجهة ، ويفيدون مواطنيهم ومجتمعهم فلا يكونون عالة عليهم من وجهة أخرى .

وإذن فالشيخ هنا يرفض صراحة مبدأ التربية المثالية الذي كان قائما على طلب «العلم للعلم» ، أو طلب العلم لله وحده دون الحياة الدنيا . فالحال الأولى تعني اعتزال الحياة ، والتنكر لها ، والانفصال عنها ، والتهرب منها ، وتجاهل ما يضطرب من شؤون في مناكبها . والحال الثانية تعني التعلق بالغيب وحده ، والتفريط في ذات النفس ، والتقصير في حقها . بل هي دعوة صراح إلى نبذ التطور ،

والتعلق بأسباب من العنان . هي إذن دعوة صراح إلى الرهبانية التي استنكرها الإسلام ورفضها رفضا «لا رهبانية في الإسلام» . فبأي كتاب أم بأية سنة كان أولئك الشيوخ يلقنون طلابهم كل شيئ من المعارف إلا ما يفيدهم في الحياة ، ويعلي من شأن وطنهم ، ويصلح من أحوالهم ، فيسمو بهم إلى أسمى غاية ؟ فلم يك ذلك التعليم إذن ، إلا تردادا لما قيل من المعلومات الرثة ، وتكرارا لما كان قرر من أصول الفقه وقواعد النحو ومبادئ المنطق ، منذ قرون خوال . فكأنما الغاية من ذلك التعليم لم تك مدارسة ، ولا ربطا لماض غابر بحاضر راهن ، ولا محاولة من أجل الخروج بالعلم إلى مضطرب الحياة ، ولا الدخول بالحياة إلى مضطربات العلم وهي رحيبة ، ولا تمريس الطلاب على التفكير والتأمل ، ولا تعويدهم على النقد البناء ، ولا دعوتهم إلى الشك في بعض القضايا التي ينشأ عن الشك فيها ضرب من اليقين ، ولا حضهم على الاجتهاد القائم على الإدراك الذكي للقضايا المستجدة على درب الحياة المتجددة ؛ قدر ما كان ، إذن ، كما أسلفنا القال ، تردادا شبه عشوائي لبعض المقررات التي ما كتبت إلا لزمانها وحده . فكانت تلك التربية تخرج فقهاء لا مفتين ، أو وعاة فقه لا أصحاب اجتهاد في الفقه وأصوله . كما كانت تخرج حفظة لقواعد النحو ، لا مثقفين

يفيدون مما تعلموه من هذه القواعد فيقع الربط بين القاعدة والنص ، فتعم الفائدة ، ويحصل الغناء .

من أجل كل ذلك ألفينا الشيخ ينعى على هؤلاء العلماء التقليديين تقليديتهم الرثة التي حظرتهم من أن يكونوا مجتهدين ؛ لأنهم كانوا ينظرون إلى مثل هذه الأمور نظرة تقديسية . وإلا فما حملهم على التهويل من أمر الاجتهاد ووقفه على القدماء وحده ، وتحريمه على أهل العصر وهو من حقهم وواجبهم ؟ ألم يك ذلك اعترافا حتما بعجزهم عن التفكير ، وقصور كفاءتهم عن الإدراك الحقيقي للهدف من التعلم وإذن أفليس ذلك برهانا على عقم تلك التربية وفساد عطنها وادبار زمنها ؟

والحق أن التعليم العربي ، قبل ظهور جهود المصلحين في الجزائر ، وفي طليعتهم الشيخ الإبراهيمي ، كان عبارة عن مظاهر لا تختلف في كثير من الأطوار عن الجهل نفسه ، والتخلف عينه ، كما كنا أسلفنا القال . والذي روج لذلك التعليم المتخلف ترويجا ، وزكاه تزكية طيبة ، وأرخى له في الحبل حتى استطال ، وأرسل لمسيرته في العنان حتى امتدت مع الطريق ، إنما هو ... الاستعمار الفرنسي الذي كان يوحي سرا وعلانية إلى الناس بأن المتعلم للغة العربية

وآدابها ، والمتلقن للدين الإسلامي ومبادئه ، لا يكون جزاؤه إلا شأن أولئك الذين رثّت ملابسهم من الفقر ، وامتقعت ألوان وجوههم من المسغبة ، وتطأطأت رؤوسهم من شدة الذل ، وأمست الحاجة الاجتماعية اليهم لا تكون ، ان كانت ، إلا في مواقف دفن الأموات ، والبكي على الأجداث ، والسؤال : هل تجوز تلاوة القرآن على الأموات ؟ وما جزاء من يتلو القرآن في مذياع ؟ وهل تجوز زيارة القبور ؟ إلى نهاية هذه الأسئلة التافهة التي شغل الناس بها عن مدارسة العلم الحق ، وعن تلقي أصول الدين الإسلامي في عمقه ، وسماحته ، ونقاوته ، ووضوح رؤيته ، وقابليته للانطباق على مختلف الأمصار والإعصار والأطوار .

وكان الاستعمار ينظر إلى هذه الزوبعة المثارة في قارورة فيسر سرورا عظيما ، إذ لا شيء كان أهون عليه من هذا التعليم الميت الذي كان والجهل صنوين ، بل والذي كان واللعنة أختين شقيقتين ؛ فكان الدارس أسوأ من الفلاح حالا ، لأنه بمدارسة ما كانوا يرونه علما إنما كان يؤثر الفقر والذل والشقاء . فقد كان الفلاحون وأبناء الفلاحين على ما كانوا فيه من متربة واضطهاد وحرمان ، أمثل حالا ، وألين عيشا من أولئك الذين كانوا يتعلمون في الزوايا ، فكانوا يحيون على الأقتيات مما يتفضل به عليهم فلاحو القرية ، فكانوا

يطعمون ألوانا من الأطباق لا تقدر عليها إلاّ معدهم . وحتى الذين كانوا يعلمون في هذه الزوايا لم يكونوا ينأون حالا عن الذين كانوا يعلمونهم من هؤلاء التلامذة الأشقياء . ولا نكاد نستثني من هؤلاء إلا أولئك الذين أطلقوا على شيوخ طرق ، وأمسوا يستنزفون أرزاق الفلاحين والسذج من الناس باسم البركة الشيخية طورا ، والكرامة الولائية طورا آخر .

ومن أجل تخليص متعلمي اللغة العربية والفقه الإسلامي في الجزائر من تلك المحنة التي كانت تسمى تعليما ، عمد العلماء المصلحون إلى إنشاء مدارس عصرية لا يعتمّ معظم معلميها ، وإنما يتطربشون . ولا يعتمّ تلامذتها أيضا ، وإنما كانوا يحسرون رؤوسهم حسرا . ففيها كانت تدرس مواد من العلم لم يك لأهل الزوايا بها عهد ؛ ولا لأهل بعض المراكز الأخرى التقليدية بها شأن ؛ فأصبح الصبية يتلقون الحساب ، والأدب ، والجغرافيا ، والتاريخ ؛ وهلم جرا من هذه المواد التي تجدي في الحياة ، وتفتح العقل على نافذة هذه الحياة .

ومن المعروف في تاريخ النهضة الجزائرية أن العلماء المصلحين هم أول من أباح التعليم للفتاة في مدارسهم فأصبحت لها مفتوحة ، وكانت الزوايا تغلق أبوابها في وجه

الفتاة الجزائرية تغليقا . ولعل أول مدرسة عربية خالصة للبنات في تاريخ التعليم العربي بالجزائر إنما هي مدرسة عائشة التي بنتها النساء التلمسانيات بما كن يتبرعن به من أساورتهن ، وأقراطهن ، وأموالهن . وكان للشيخ في ذلك حتما يد وتوجيه ورأي .

ثم لعل أول معهد للتعليم الثانوي العربي في الجزائر ، وطني البرامج ، عصري الطرق البيداغوجية ، جزائري الإطارات ، عُروبي النزعة ، إنما هو معهد عبد الحميد بن باديس الذي أسسه الشيخ بقسنطينة في سنة سبع وأربعين وتسعمائة وألف . وما بزغت الشمس على فاتح نوفبر من سنة أربع وخمسين من هذا القرن حتى كان عدد طلاب هذا المعهد ثلاثة عشر وتسعمائـة .

وانّا لا ندري كيف كان يمكن للجزائر أن تستعيد عروبتها بهذه السرعة المذهلة لو لم تنشأ تلك المدارس العربية الحرة التي كان من ثمراتها أيضا إنشاء معهد ابن باديس ، كما أسلفنا القال ، والذي كان من ثمراته أيضا التمهيد لبعثات علمية إلى المشرق العربي ...؟ ولا نخال أحدا ، إلا إذا كان مكابرا أو مماريا ، يستطيع أن ينكر ما كان للشيخ الإبراهيمي في كل ذلك من آثار ومساع .

ومن الآيات على أن نظرة الشيخ إلى التربية كانت متطورة ـ وكانت تختلف على الأقل عن نظرة الزيتونيين والأزهريين وأصحاب الزوايا اليها ـ إننا نلفيه يحدثنا في سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وألف عن الإصلاحات التي أدخلها على برامج التعليم في معهد ابن باديس بقسنطينة ، بعد الإفادة من تجارب السنة الأولى ، فينبئنا أن من بين الإصلاحات التي كان قد تقرر إدخالها «تحسين برنامج الرياضيات ، وعلوم الحياة بإسناد تعليمها إلى مدرسين أكفياء مثقفين بالثقافتين» (م . س . ، 221) فالتعليم العصري الذي كان الشيخ يحرص عليه في أبسط صورة من صوره ، أن تدرس فيه الرياضيات ، وعلوم الحياة : أي العلوم الدقيقة ، والعلوم البيولوجية. ولم يكن الشيخ يخادع نفسه ، ولا أنفس الناس حين اشترط أن يكون أمثال أولاء المدرسين ممن يتقن اللغتين على الأقل : العربية والفرنسية . أما العربية فللتوصيل والتأصيل ، وأما الفرنسية فللتلقّي والاستعطـاء .

ولم تكن نظرة الشيخ إلى إصلاح هذه البرامج التعليمية مجردة عن الأخلاق والنظام والصرامة . فن جملة الشروط التي أرسلها الشيخ فجعلها عنوانا على إصلاح التعليم في المعهد الباديسي وهو لا يبرح في سنته الثانية :

1 ـ «تحسينات واسعة ذات أثر في النظامين الداخلي والدراسي» (م . س .) .

2 ـ «تشديد المراقبة على التلاميذ في الناحية الأخلاقية ...» (م . س .) .

وإذن فالأخلاق العالية للتلاميذ ، والنظام الصارم الذي يجب أن يميز سلوكهم داخل مؤسسة التعليم وخارجها أيضا ، وإلزامهم بتلقّي العلوم العصرية النافعة لهم ولمجتمعهم ، ثم المحافظة على أصول الدين ، والتزود بالثقافة العربية الأصيلة تزودا أوفى ، ومدارسة التاريخ الوطني الذي به يعرف الناشئة ماضيهم ومواقف أجدادهم المشرقة ... إنما هي مظاهر من جملة طائفة من الإصلاحات والخصائص التي كانت تميز التعليم في المدارس الجزائرية الوطنية الحرة بوجه عام ، ومدارس جمعية العلماء بوجه خاص على ذلك العهد الذي كان فيه للشيخ جولات الفارس المغوار ، وصولات المناضل المقـدام .

3 ـ التعليم العربي في الجزائر وموقف الاستعمار منه :

وكان يراد بالتعليم العربي في الجزائر على ذلك العهد : عهد الاستعمار الفرنسي ، إلى التعليم الذي كان العلمائيون والشعبيون (نسبة إلى العلماء وحزب الشعب الجزائري) يشرفون

عليه : يشيدون مدارسه ، ويدفعون مرتبات المعلمين ، ويتلون تنظيمه وسياسته ومنهجته واختيار كتبه المدرسية .

ولم يكن هناك شئ أعذب موردا ، ولا أمرأ مشربا ، ولا أهنأ مطعما ، ولا أشد إغراء ، ولا أحلى مذاقا ، ولا أودّ إلى الإدارة الاستعمارية في الجزائر من أن تعمد إلى هذا التعليم العربي فتعيث فيه فسادا : سفيهة ظالمة ، وحقودا باغية ، وسلطانة عابثة . فهذا مرسوم ثامن مارس من سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وألف القاضي بحظر تدريس اللغة العربية في الجزائر إلا بإذن مسبق تمنحه السلطات الاستعمارية . وسواء عليها في ذلك أن يكون ذلك التعليم في صورة دروس وعظية تلقى في المساجد ، وفي صورة دروس تقليدية تلقن في المدارس . وهؤلاء معلمون يحشرون في السجون حشرا ، ومن لم يسجن منهم ضيقوا عليه الخنا ق ، ونشدوه تحت كل كوكب ، وطلبوه في قمم الجبال ، والتمسوه في أعماق الأودية السحيقة ؛ فكان السجن للسجناء في بعض الأطوار أمثل من الحرية التي لم يكن باقيا منها بالقياس إلى أولئك المعلمين الأحرار ، التعساء ، غير بعض الساعات القليلة من العمر تغفو فيها عين الاستعمار الساهرة ، أو تشغل عنهم بما كانت تحسبه أخطر شأنا عليها من ذلك التعليم . وأولئك تلاميذ كانت تزجرهم زجرا ، وتنهرهم

نهرا ، وترهبهم إرهابا ، وتضايقهم في كل وجه من الطريق ، وتحت أي حال يرتدونها : تحلالا وتظعانا . فكم كان شقاء أولئك المعلمين بالاستعمار الفرنسي في الجزائر غراما !

وهذا الاضطهاد المتوالي ، هو الذي هاج مزبر الشيخ فدبج تسع مقالات نشرها في البصائر الثانية على امتداد شهور من سنة تسع وأربعين وتسعمائة وألف تعد أمثل ما كتب عن التعليم العربي في الجزائر على طول عهد الاستعمار الفرنسي : تحليلا لموقف الاستعمار المعادي لهذا التعليم ، وفضحا لطويته السيئة . فكلما ، كان يقرر الشيخ في المقالة الأولى من هذه المجموعة «زادت الأمة إقبالا على تعلم لغتها ودينها ، زادت الحكومة (الاستعمارية) في القيد تضييقا ، حتى أنها لو نفذت تلك القرارات بحذافيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرف هجاء عربيا ...» (م . س . ، 225) .

والحق أننا لم نر كاتبا جزائريا وفق إلى وصف الحال التي كانت تعتور المعلم الجزائري الذي كان يحاول جاهدا طلب الرخصة من السلطات الاستعمارية ليعلم اللغة العربية في الجزائر كالشيخ الإبراهيمي في بعض مقالته الآنفة الذكر . فأيّ أثقال من الهموم والمحن كانت تصاحب هذا المعلم المحروم وهو يلتمس هذه الرخصة الممكنة قانونا ، المستحيلة

حالا ؟ ! فقد كان مثل هذا المعلم الشقي «يقدم طلب الرخصة إلى أصغر مكلّف فيدخل به في بحر من الإجراءات لا ساحل له ، حتى يفرغ جيبه ، وتحفى قدماه ، ويكل ذهنه ؛ زيادة على السخرية والاحتقار . فإذا قدر لذلك الطلب أن يخرج من مكتب (المسؤول) الصغير ، إلى مكتب (المسؤول) الكبير ، تجددت الإجراءات ، وتعددت التحريات ، وكثرت المراجعات ، وانفتح للصغير باب الاعتذار ، واتسع للطالب أفق الانتظار ، حتى يملّ وييأس . والمحظوظ هو الذي يحصل على الرخصة في سنة . وما المحظوظ إلا من قامت الشواهد على إخلاصه للحكومة ، وأثبت الفحص الإداري براءته من العيوب صغيرها وكبيرها . وأكبرها أن فيه وسما من جمعية العلماء ، ونسبة اليها ، أو أنه يحمل فكرتها الإصلاحية. وأصغرها أن يكون اشترك في جمعية علمية ، أو حضر في حفل أدبي ، أو استمع لنشيد قومي ، أو انتسب إلى حركة سياسية . فكل هذا مما يسجل في الصحائف . وكل هذا مما يوجب لصاحبه الحرمان من رخصة التعليم ...» (م . س . ، 227 ـ 228) .

فلعل هذا النص الذي أثبتناه من أول مقالة كتبها من جملة تسع عن هذا الموضوع أن يكون واضح الدلالة بل شديدها على نفسية السلطات الاستعمارية في المماطلة ،

والمساومة ، والمكابرة لدى تسليم رخصة التعليم العربي لمدرس جزائري . فهو في أمثل الأطوار لا ينالها قبل سنة كاملة وهو يركض وراء الإجراءات الرتيبة الثقيلة المضنية القاسية . ولا يناله من ذلك شيْ إلا إذا أثبت أنه حكوميّ الهوى ، استعماري الميل . أي أنه غير وطني . أما إن كان :

1 ـ عضوا في جمعية العلماء ؛
2 ـ أو كان منتميا اليها بالفكر أو بالاديولوجية ؛
3 ـ أو كان اشترك يوما ما ، في مكان ما من الجزائر ، في جمعية ثقافية ؛
4 ـ أو كان حضر يوما ما ، في ناد ما ، محاضرة ، أو وافى مجلسا أدبيا ؛
5 ـ أو كان قدر له أن استمع يوما ما إلى نشيد وطني ... ؛
6 ـ أو كان منخرطا في حزب سياسي ...

فإنه ، أن مثل حالا من هذه الأحوال ، لا ينال هذه الرخصة المستحيلة أبدا ، لأن صفة واحدة من هذه الصفات الست خليقة بأن تجعله مارقا متمردا على الاستعمار الذي كان لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من سيرة الجزائريين ، في أي موقع ، وفي أي لحظة من لحظات حياتهم ، إلا أحصاها عـددا .

وهل كان يمكن ، والحال على ما وصف الشيخ ، أن تمنح هذه الرخصة لغير الخونة وأشباه الخونة من المتخاذلين ، أو ممن لم يكن يخشى لهم جانب ، ولم يكن لهم شأن في المقامات إذا قاموا ، ولا تأثير في المآقط إذا أقطوا ؟ وهل كان يجوز للوطنيين أن يستسلموا لغير اليأس من هذه الرخصة ، ويلوذوا بالحزن مثوى ؟ ولعل هذه السيرة الشريرة للاستعمار الفرنسي هي التي جعلت الشيخ يعجب كيف لم ينته وجود الحرف العربي في الجزائر ، وكيف لم يزل زوالا نهائيا ؟ فلم يكن همّ الاستعمار الفرنسي غير ذلك طوال وجوده بالجزائر . فلولا إرادة الوطنيين الصلبة ، وحبهم الانتماء إلى العروبة لكان الاستعمار وفق إلى طمس معالم العربية في الجزائر فغدت بديارها كأمس الدابر .

* * *

ولا نخال أن ما أتينا عليه في بعض هذا الفصل يكون موفيا للمجالات التي استأثرت بنشاط الشيخ في مضطربات التربية بمعنييها التهذيبي والتعليمي جميعا . فهناك من المضطربات ما لا يبرح غائبا ؛ ومن ذلكم طائفة من المقالات كان الشيخ دبجها عن الشاب المسلم الجزائري كما تمثله له الخواطر . فقد كان الشيخ تمثل هذا الشاب الجزائري على أطوار مختلفة كلها يمثل الفضيلة ، وينبذ الرذيلة ،

يؤثر المآثر ، ويتعلق بالقيم ، ويشرئب إلى المعالي ، ويسمو إلى المكارم ، ويأبى السفاسف والدنايا : «أمثاله يقرر الشيخ ، كالدينار : يروق منظرا ، وكالسيف : يروع مخبرا ، وكالرمح : أمدح ما يوصف به أن يقال ذابل . ولكن ذاك ذبول الاهتزاز ، وهذا ذبول الاهتزاز . وكالماء : يمرؤ فيكون هناء يروي ، ويزعق فيكون عناء يردي . وكالراية بين الجيشين : تتساقط حولها المهج وهي قائمة ...» (م . س . ، 585) .

ولا نزايل هذا الفصل حتى نومي أيضا إلى سلسلة أخرى من المقالات التي كان الشيخ كتبها عن التعليم العربي في الجزائر ، وهي غير التي كنا تحدثنا عنها ، أو أومينا اليها ؛ فمن ذلكم «معهد عبد الحميد ابن باديس» و «مدارس جمعية العلماء» ، و «إلى أبنائنا المعلمين الأحرار» ، و «حقوق الجيل الناشئ علينا» ، و «حقوق المعلمين الأحرار على الأمة» ، و «اختلاف ذهنين في معنى التعليم العربي» ، وكلها وارد في كتاب عيون البصائر الذي هو أصلا مقالات كانت نشرت في جريدة البصائر الثانية .

وإذن فقد كان الشيخ معلما للعربية ، دارسا لآدابها ، محققا لألفاظها ، معجبا بها إلى حد الفتنة ، حاضا على تعلمها إلى حد العبادة ، مدافعا عنها إلى درجة الجهاد ،

ناصحا عن مصالح معلميها ، منشئا للمدارس التي كانت تدرس فيها ، مناوئا الاستعمار الفرنسي الذي كان يحاربها سرا وجهارا ، وليلا ونهارا ... منتقدا لكل تعليم عربي تشرف عليه الحكومة التي كانت لا تعطي شيئا قليلا من المال إلاّ لتأخذ شيئا كبيرا من العطاء المعنوي ، ناعيا على الزيتونيين أنهم لم يطوروا مناهجهم التعليمية فعزف عنهم الشباب عزوفا ، ونبذوهم نبذا .

أفلا يكون الشيخ الإبراهيمي ، والشأن هذا ، مربيا ، بل مربي المربين في الجزائر على امتداد خمسة وأربعين عاما ؟

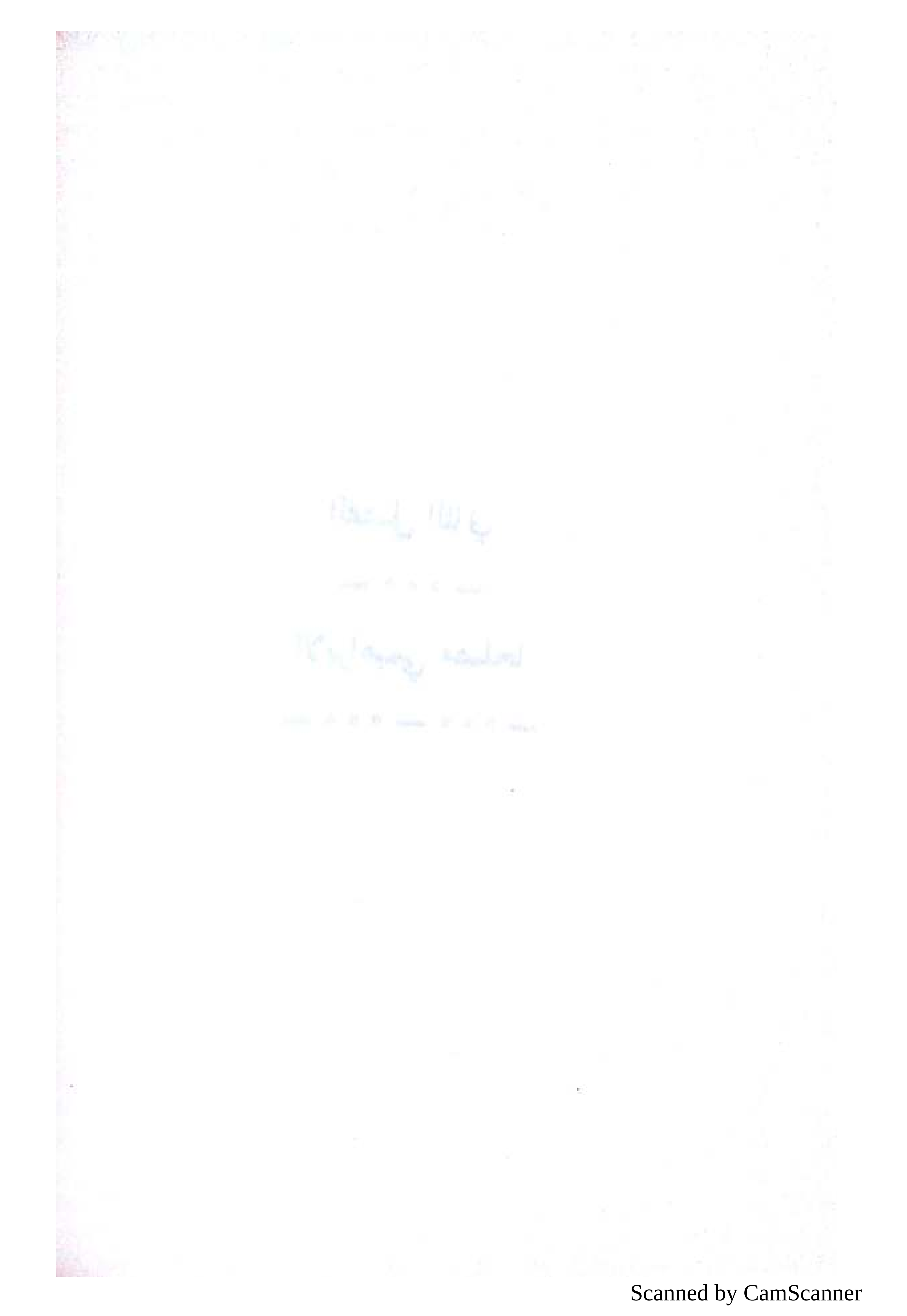
* * *

الفصل الثاني

— ✲✲✲ —

الابراهيمي مصلحا

— ✲✲✲ — ✲✲✲ —



لعلّ في تضاد الأشياء ، وتصارع المواقف ، وتمايز الأفكار ، واختلاف الرؤية الفلسفية إلى الحياة والكون ، كثيرا من الخير والغناء . فماذا كان يكون لو أن الليل كان بدون نهار؟ أو أن النهار كان بدون ليل ؟ أو النساء كن بدون رجال ؟ أو أن الرجال كانوا بدون نساء ؟ أو أن الحياة كانت بدون موت ؟ وهلم جرا من هذه المتناقضات التي إذا كان ينشأ عنها بعض الشر ، أو كل الشر ، لطائفة من الناس ، فإن الخير كل الخير ينشأ عنها لطائفة أخرى منهم حتما ،

نقرر ذلك ونحن نصرف الوهم إلى الفكر الديني المشبع بالفكر الصوفي الجامد الذي بعد الشعلة الوهاجة التي ظلت تشع منه عبر بعض العصور ، والذي بعد أن عرف مجتهدين كبارا ، ومفكرين من الطراز الأعلى ، ارتد هذا الفكر جامدا وكأنه لم يشع من ذي قبل على الناس والكون ، بل ارتد جامدا وكأنه لم يعد شكلا من أشكال المعرفة الدينية التي لها انعكاسات على الحياة ، وتأثير في السلوك اليومي للناس .

وإذا هذه العلوم الدينية المتبحرة المتوسعة تنحصر في قارورة ضيقة لا فقهية كان يحيد عنها قيد أنملة . فالعبقرية للقدامى وحدهم ، والانتقاد ليس من حق المعاصرين لأنهم ، نتيجة لذلك ، ظلوا وكأنهم دون المستوى الفكري الذي يفضي بهم إلى درجة هذا النقد . فكأنما وظيفة التعليم الديني الذي كان شائعا في الجزائر ، وفي معظم الأقطار الإسلامية إلا نقل كلها ، كانت لا تطمح إلى درجة التفكير ، أي حق التفكير أثناء التعلم وطلب المعرفة ، بل كأنها لم يكن من غايتها إلا الحيلولة دون هذا التفكير وهذا النقد . وإلا فما حمل أولئك المحافظين ، وأكاد أصفهم بأسوأ من ذلك ، على رفع شعارهم الشهير : «أعتقد ولا تنتقد» ؟ وإننا لا ندري من أين تصوروا هذا الشعار فجعلوه قاعدة زعموا أنه ينشأ عنها خير للناس ولمجتمعهم ؟ فإن كانوا إنما استوحوا ذلك من سيرة بعض المفكرين المسلمين الكبار كأبي حامد الغزالي الذي حاول رفض الفلسفة وعلم الكلام فإن الغزالي كان في حقيقة الأمر ، على الرغم من ذلك ، من أول من أقام الإيمان نفسه على التفكير في كتابه «المنقذ من الضلال» . فقد حاول الشيخ الإمام أن يشكّ لكي يؤمن ، واتخذ من هذا الشك منهجا للمعرفة الذاتية القائمة على استكناه الحقيقة التائهة بين الأعراض المرنة ...

والحق أنهم لم يستوحوا شعارهم ذاك إلا من التخلف الذي أدرن الفكر الإسلامي المشرق فأصبح الاجتهاد الذي كان وسيلة من وسائل أعمال العقل جمودا ، كما أمسى التصوف طرقية قائمة في كثير من الأطوار على الشعوذة والاحتيال . بينما غدا طلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ومسلمة مجرد اجترار لبعض المعلومات العتيقة التي لا تصلح إلاّ كونها في متحف تاريخ الأفكار .

وأمام هذا الجمود المخيّم ، وهذا الموقف المتخاذل الذي نشأ عن شيوع الفكر الصوفي الرثّ ، كان لا مناص من قيام حركة ما ، تهزّ ذلك الفكر النائم فتوقظه من سباته العميق . ولقد كانت هذه الحركة هي ما أطلق عليه في كتب التاريخ «الحركة الإصلاحية» ، طورا ، و «الحركة السلفية» طورا آخر ، وكأنهما اسمان لمسمى واحد مع شيْ من الاختلاف في الدلالة .

وقد أصبح متفقا بين الناس أن هذه الحركة ، لعلل كثيرة وأسباب ليس هذا موطن ذكرها ـ وقد ذكرها كثير من الدارسين للفكر الإصلاحي ـ انطلقت من المشرق نحو المغرب ، لا من المغرب نحو المشرق ، على الرغم من أن الحركة الإصلاحية في الجزائر بالذات كانت ، في رأينا ، أقوى وألصق بالحياة اليومية للمواطن الجزائري

فخرجت من المسجد إلى الشارع ، وهبطت من السماء إلى الأرض . فالمدارس الكثيرة التي أنشأتها الحركة الإصلاحية الجزائرية لم يحلم بتأسيسها ، ولا حتى التفكير فيها ، أيّ حركة سلفية أخرى مشرقا ومغربا . ولعل الظروف التاريخية المتصفة بصفات الهيمنة الاستعمارية الحادة كانت من بين العوامل التي جعلت الحركة الإصلاحية الجزائرية تتسم بالثورية في الرؤية ، والعملية في المنهج . ولعل الذي ظاهر المصلحين الجزائريين على النهوض بنشاط تربوي أكثر وأوسع ، أيضا ، أنهم لم يقعـوا فيما وقـع فيه المصلحون الآخرون في العالم الإسلامي حين وقفوا نشاطهم الفكري لدى المحاورة والمناقشة داخل المساجد ، بل جسدوها في هيئة رسمية هي «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» .

فماذا كانت مواقف الشيخ الإبراهيمي من خصوم الحركة الإصلاحية ؟

1 ـ موقف الشيخ من الطرقيّة :

والحق أن مصطلح «الطرقية» وما يتصرف منها في اللغة العربية على رجال التصوف في العهود المتأخرة لوصمهم بالتخلف الفكري ، والتزام الشعوذة في السلوك ، والاحتيال في الاستيلاء على عقول السذج من الناس . فكأن «الطرقية» شيء يختلف كل الاختلاف أو بعض الاختلاف ،

عن مصطلح «الصوفية» . فالتصوف نسك وتقوى وصلاح وصفاء وتضحية ، على حين أن الطرقية ، بمفهم الخصم الذمي ، تعني ما قررناه . ولكن الطرقيين المعاصرين يرفضون الإطلاق الذي أطلقه عليهم خصمهم زاعمين أنهم ألصق بالتصوف الأصيل .

وإذا كان الناس متفقين على أن ابن باديس هو قائد الحركة الإصلاحية في الجزائر بدون منازع ، فإن ذلك حق . ولكن ما هو حق أيضا أنّ الإبراهيمي ظل الظهير الأقوى ، واللسان الذي كان يخطب به ، واليد التي كان يبطش بها ، والسيف المصلت الذي كان يشهره في وجه الطرقية فينكأ فيها نكأ شديدا .

وأكثر من ذلك أن الإبراهيمي هو المفكر الجزائري الوحيد الذي أرخ للحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي عموما ، وفي الجزائر خصوصا ، فربط الأسباب بالمسببات ، والعلل بالمعلولات ؛ فانتهى الى أن الحركة الإصلاحية لم تنشأ طفرة ، ولم تبرز إلى الوجود بغتة أو مصادفة ، وإنما كانت لأن الأرض كانت ترغب في إنبات ذلك النبت فأنبتته . ولعل ما كتبه الشيخ في صورة مقدمة طويلة لسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن يكون هو الوثيقة الوحيدة التي كتبت على ذلك العهد في الجزائر . وهي من

أجل ذلك ، حسب رأينا على الأقل ، عمل متفرّد ، إذ كانت معدودة في الوثائق التاريخية التي صدرت عن شاهد عيان ، ومعاصر يتحدث عن أهل زمانه ، على الرغم ما في المعاصرة من منافسة وذاتية وحزازات ناشئة عن اختلاف الرؤية إلى الحياة .

فلنعلم إذن بأن الحركة الإصلاحية الجزائرية ما كان لها لتنهض لو لم تسبقها الحركة الصوفية التي كانت ترسبت في النفوس ، وعششت في الأمخاخ ، وامتزجت بالأرواح ، وأصبحت من القيم الثابتة بين الناس ، والمرؤات الشائعة في سلوكهم وتفكيرهم . ولكن تلك الحركة كانت شاخت حتى هرمت ، وضعفت حتى أسفّت ، وأصبحت ، كما أسلفنا القال ، قائمة قبل كل شيُ ، على الاحتيال على العامة من الناس ، وضعفاء العقول من العمال والفلاحين تلتهم أرزاقهم ، وتنهش أقواتهم ، وتقضم معاشهم في شره شديد .

فكان إذن لا مناص لهذه الطرقية ، ابتغاء بلوغ بعض غاياتها من أولئك السذج من الأشياع الذين أطلقوا عليهم «الفقراء» طورا ، والمريدين طورا آخر من أن تركب الحق والباطل ، وتخبط في الظلام والنور ، كيما ترغّب أولئك الأشياع أو الفقراء في الايلاع بأوراد كان شيوخ هذه الطرقية

يؤلفونها ويلفقونها . وهي عبارة عن أخلاط من التحميد والتسبيح والبسملة والحوقلة ، والاستغفار والاسترحام ، فكان ذلك هو صلاتهم الثانية . بل أن منهم لمن لم يرعو في الافتاء لأصحابه بأن تلاوتها أفضل من تلاوة القرآن ، وأن الاشتغال بها أمثل وأعظم من النهوض بالجهاد . وبعض ذلك ما يؤكده الشيخ حين يقرر بأن هذا القرآن إذا كان «متعبدا بتلاوته اللفظية وهو ستون حزبا ، فإن تلاوة انجيل التيجاني القصير ، وهو«صلاة الفاتح» مرة واحدة تعدل ستة آلاف ختمة من القرآن . وإذا كان القرآن قد شرع الغزو ، وهو من أصرم الأعمال وأشقها ، فإن تلاوة هذا الإنجيل التيجاني مرة واحدة تعدل آلاف الغزوات . وهي لا تقوم إلا على حركة اللسان ، من غير اقتحام للميدان ، ولا تعرض للرمح والسنان» (سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص . 25) .

فمن من الناس لا يعظم هذا الادعاء الذي يتحدث عنه الشيخ ؟ ثم من منهم لا يرفض هذه الشعّوذة القائمة على سوء الذوق ، غير متخلفين من الناس حظرهم الاستعمار من التعليم فحظروا كل شئ في الحياة ، فجاءت اليهم أيدي الطرقية فأضلتهم عن السبيل القويمة ضلالا بعيدا ؟ بل من من العقلاء لا يسخر من هذا الاعتقاد الباطل الذي كان

الطرقيون يهولون به من شأن تلك الأذكار والأوراد التي أنشأوها بأنفسهم ، ثم جاءوا اليها فقدسوها أكثر مما قدست به الكتب السماوية ، والحكم النبوية ؟ بل أي شيء أدعى إلى الضحك من أن يقول قائل بأن «صلاة الفاتح» أمثل من تلاوة القرآن ؟

فحتى الملحدون ، وجبابرة الكفر ، سيرفضون حتما ، بحكم سداد عقولهم ، ذلك المزعم الذي يجعل من هذا الورد الذي أطلقوا عليه «صلاة الفاتح» أثرا أقدس من القرآن ، بل أقدس منه آلاف المرات . ولو وقف الأمر لدى هذا التفاضل الذي لا يجوز بين الأثرين ، لانتفاء وجه المقارنة ، وفساد صورة المماثلة ، قلنا : حتى لدى الملاحدة العقلاء ، لكان عسى ، على عظمه وفظاعته ، أن يهون . ولكن هذا التفاضل جاوز التنظير إلى التطبيق ، فأصبح المشتغل بتلاوة «صلاة الفاتح» أمثل لدى الله ، فيما كانوا يزعمونه لأشياعهم المضللين ، من المشتغل بالجهاد والغزو . وهذه بالذات ، ولو أقسم أصحاب «صلاة الفاتح» بأقدس ما يقدسون ، وأنهم برآى فيما كانوا يقررون ، وان الأصل في فكرة هذا التفاضل لم يك إلا اجتهادا ذاتيا ... لما حدنا قيد أنملة عن اعتقادنا بأنها لم تك إلا بإيعاز من الاستعمار المفكر البارع ووحيه الخصيب . وإلا فكيف يجوز قول

ما لا يجوز ؟ والوقوع في فخ هذا السخف الذي لا يصدقه العقل ، ولا يستنيم اليه الجنان الثابت ؟

فكأنما هذا الورد الهزيل يسقط الجهاد ويرغب عنه . وقد أفلح الاستعمار وأشياعه ، والمنخدعون له ، زمنا قبل أن تقوم الحركة الإصلاحية الجزائرية لتهور بمعاولها الحادة ما كانت الطرقية شيدته في عهود متطاولة . وقد كان للشيخ حتما في ذلك صولات معلومة ، وجولات شهيرة . فقد ألفيناه يشنّ غارات شعواء بيراعه الدافق على الطرقية المتفشية فيعرض للشيخ ابن عليوة فينتقد طريقته في توصيل فقراته إلى معرفة الله ، كما نلفيه ينتقد المتصوفة بوجه عام فينحي عليهم باللوائم الشديدة بما حرفوه من دين الله . وقد سخر من ابن عليوة ، وبعض الطرقيين المعاصرين له ، كيف قصّروا من الطريق وقد كانت من قبل طويلة ، زاعمين أن طبيعة العصر تقتضي النزول بمراحل الاختلاء الروحي من شهور إلى ثلاثة أيام ، بل في بعض الطرق إلى ليلة واحدة فحسب .. فكبّتهم بأن سألهم : كيف نقصوا من مدة الخلوة ، ولم ينقصوا من مدة الخدمة ؟

فبعد أن كان قدماء المتصوفة وأرباب الطرق «يتخذون من مراحل التربية (الروحية) مدارج للوصول إلى معرفة الله فيما يزعمون . وفي ذلك تطويل للمسافة واشعار بأن المطلوب

شاق .. حتى جاء الدجال ابن عليوة وأتباعه بالخاطئة ، فأدخلوا تنقيحات على الطريق ، ورسوما أملاها عليهم الشيطان . وكان من تنقيحاتهم المضحكة تحديد مراحل التربية الخلوية لمعرفة الله بثلاثة أيام ... تتبعها أشهر أو أعوام في الانقطاع لخدمة الشيخ من سقي الشجر ، ورعي البقر ، وحصاد الزرع ، وبناء الدور ، مع الاعتراف باسم «الفقير» ، والاقتصار على أكل الشعير . ولئن سألتهم لم نزلتم مدة الخدمة إلى ثلاثة أيام ليقولنّ : فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر الذي يتطلب السرعة في كل شيئ ، فقل لهم : قاتلكم الله ! ولم نقصتهم مدة الخلوة ، ولم تنقصوا مدة الخدمة ؟» (م . س . ، ص . 24) .

ونحن هنا إذا أسقطنا من هذا النص بعض العبارات الحارة التي أملتها المعاصرة وأوجبتها المنافسة بين الرجلين ، فإننا نستخلص منه أن الطرقية لم تكن ترعوي في طلب الطوائل ، والادعاء بما لا يجوز أن يكون في دين ، بله الدين الإسلامي ، حين جعلت التيجانية ترديد «صلاة الفاتح» أفضل من تلاوة القرآن آلاف المرات . فإذا صح ما قرر الشيخ ، ولا معنى لأن لا يصح فقد ثبت بالتاريخ والمعايشة والمخالطة ، فإن هذه التيجانية ، من حيث هي طرقية ، تكون أسوأ من كفر الكافرين ، وأقبح من إلحاد الملحدين ،

وأبشع من أَفَنِ المارقين . ذلك بأنّ الملحدين إنما يحاربون العقيدة الإسلامية محاربة المجاهر المكابر ، أما أمثال هؤلاء السذج فقد كانوا يدعون الإسلام ادعاء لأنفسهم ، بل كانوا يزعمون أنهم من حماته وأنصاره ، ثم يجيئون بما لا يجوز عليه : أفلا يكونون ، وهذا شأنهم ، أخطر على الإسلام من أكفر الناس كفرا ؟

ونلفي الشيخ يكشف عن طوايا رجالات الطرق بما كانوا يسخّرون من سذّج الفلاحين ، ويعبثون بطيبي العاملين ، فإذا أنت ، كنت ، تراهم ينقطعون لسخريّ الشيخ شهورا بل أعواما . والغريب أن ذلك السلوك الذي لم يك في حقيقة أمره إلا سخريّا صراحا ، كان شيوخ الطرق يعدونه ، ظاهرا على الأقل دون أن يكونوا به من المقتنعين في دخائلهم ، تكملة للطقوس الصوفية التي كانوا يلزمون بها أشياعهم . وأيّ سخريّ أبشع ، بل أي استعباد أفظع ، من أن ينقطع رجال من الناس لخدمة شخص وأطفالهم ونساؤهم ، ومن يمتّ اليهم بمواتّ القربى ، يتضوّرون جوعا ، ويتجرعون أقداح البؤس أنفاسا ؟ بل أي إهانة للإنسان من أن يستحيل من حر إلى عبد ، ومن عزيز إلى ذليل ، ومن غنيّ إلى فقير ، في سبيل تحقيق شيئ لا يحقق أبدا ، لأنه لا يوجد أبدا ؟

2 ـ موقف الإبراهيمي من الكتاني الطرقي :

ولم يقف الشيخ لدى هذا الموقف الحازم من أهل الطرق الصوفية ، وهو الموقف الذي حاولنا إبراز بعض جوانبه في الفقرة الماضية من هذا الفصل (وان لم نرد إلى تفصيل أكثر ، لأن ذلك سيمرق بهذا الفصل إلى مجلد لو تقصينا مواقف الشيخ من الطرقية وجئنا على آثاره حولها بالتحليل والتعليق) ـ حيث لم يكن يتردد في أن يشنّ عليهم الحروب المتلاحقة ، ويبادلهم العداوة بأضرى منها ، طالما لم يتوبوا إلى الرشد ، ولم يلتزموا بالسبيل السوية التي هي جادة الإسلام ، وإنما جاوزه إلى محاربة من يدافعون عن هذه الطرقية ويتعصبون لها من بعض العلماء . ويتمثل موقفه هذا خصوصا في الوقوف بالمرصاد للشيخ عبد الحيّ الكتاني الذي كان ييمّم الجزائر فيطيل المقام بديارها . ولم يكن يرعوي أثناء ذلك أن يشنّ على الحركة الإصلاحية الجزائرية حربا معلنة طورا ، وغير معلنة طورا آخر . وفي الحالين كان أضرّ عليها من جميع الطرقيين في الجزائر ، لشدة نفوذه ، وبعد صيته ، ونفاذ كلمته . فكان إذن لا مناص للشيخ من أن يطلق لقلمه العنان ، ويدعه يصول ويجول في مضطربات من الكلام الرفيع الأسلوب ، فإذا هن ثلاث مقالات مدبجات في الكتاني الطرقيّ ، لا الكتاني المحدث ،

ربما كنّ من أجمل وأحلى وأرقى ما كتب الإبراهيمي من مقالات إطلاقا .

وندرك من المقالات الثلاث البليغات أن يراع الشيخ كان هائجا ، وأن عاطفته كانت مائجة ، فإذا هذا اليراع ينفث من ريشته ألفاظا ملتهبة كالحمم المقذوفة من فوهات بركان مدمّر . وقد كان الشيخ يرقى بكتابته في ذلك رقيا ، لعله مقصود ؛ فإذا هو يستشهد بكلام الشعراء ، والأمثال السائرة ، ومصطلحات أهل الحديث ، ومصطلحات أهل المنطق ، وهلم جرا من هذه العبارات الدالة على التعمق في الثقافة العربية والتبحّر في مناكبها حتى يرى الكتاني سعة علمه ، مصطنعا بعض سلاحه القوي الذي كان به يهاجم العلماء المصلحين . ولعل بعض ذلك يتجلى واضحا في وجه من هذه المقالة التي نشرها في البصائر الثانية تحت عنوان : «عبد الحي الكتاني : ما هو؟ وما شأنه ؟» . ويقول الشيخ في بعض مطلعها (وهي من أطول المقالات التي نشر الإبراهيمي في البصائر) :

«في لغة العرب لطائف عميقة الأثر ، وان كانت قريبة في النظر ؛ منها التسمية بالمصدر والوصف به ، يذهبون بذلك إلى فجّ من المبالغة سحيق ، تقف فيه الأذهان حسرى ،

ويغالط به الحس فيتخيّل ذوبان الموصوف وبقاء الصفة قائمة بذاتها ؛ كأن الموصوف لكثرة ما ألحت عليه الصفة وغلبت ، أصبح هو هي ، أو هو إياها . وعند الخنساء الخبر اليقين حين تقول :

* فإنما هي إقبـال وادبـار *

وعلى هذا يقال في جواب ما هو عبد الحي ؟ هو مكيدة مدبرة ، وفتنة محضرة . ولو قال قائل في وصفه :

شعـوذة تـخـطـرفي حـجليـن وفتـنـة تمـشي عـلى رجليـن

لأراح البيان والتحليل ، كما يقول شوقي ، ولعفّى على أصحاب التراجم ، من أعاريب وأعاجم ، ولأتى بالإعجاز ، في باب الإيجاز ؛ إذ أتى بترجمة تحمل ببرقية ، إلى الأقطار الغربية والشرقية ...» (عيون البصائر ، 607) .

ويمضي قلم الشيخ على هذه الوتيرة نافخا النار ، نافثا الشرر ، قاذفا الحمم ، كل لفظة كالجمر المحرق ، وكل جملة كالسيف المصلت ، وكل نكتة كاللعنة اللازبة .

والحق أن الإبراهيمي هنا لا يناقش الكتاني بعض آرائه الغريبة في التصوف والتعصب له ، مناقشة موضوعية هادئة ، قائمة على المنطق والحجج المألوفة ، فإنما نلفيه يحيد عن ذلك حيادا مقصودا لينصبّ على هوامش من سيرته ،

ومظاهر من سلوكه ، لحسبانه ذلك مرتعا خصيبا لقلمه الغاضب ، وخياله الدافق . فلا شيء يذكر في هذه المقالة التي كأنها استمرار لبعض «رسالة التربيع والتدوير» لأبي عثمان ، مما كان يجب أن يكون فيها من بث المعلومات الإصلاحية غير حكاية الشيخ عن نفسه لما كان مجاورا بالمدينة ، وبعض مواقفه هنالك مع شيوخ تقليديين .

ونلاحظ بأن الإبراهيمي ركّز قوة مقالته على شيئين :

1 ـ على المعلومات التراثية فإذا هو يومئ إلى مواقف وأقوال وقواعد من علم النحو ليدلّ على عمق ثقافته ، وتبحر اطلاعه .

2 ـ على أسلوب متحرك الجمل ، مسجوعها في معظم الأطوار ، ليكون ، في رأيه ، شديد التأثير ، يعجب القراء ويطربهم ، ولا سيما قراء ذلك العهد .

ومما نلاحظ في مطلع هذه المقالة من معلومات تراثية أنـه :

1 ـ يومئ إلى أن العرب في سنن كلامها ، وسامق بيانها ، وساحر خطابها ، قد تسمي بالمصدر وتصف به ، عوض أن تعمد إلى اسم الفاعل على التقليد المألوف ، أو إلى الأسماء المرتجلة على الأصل . ويستشهد على ذلك بشطر بيت للخنساء .

2 ـ يومئ إلى القضية الزنبورية التي أفضت بسيبويه إلى الموت كمدا بعد المناظرة التي وقعت له مع الكسائي زعيم المدرسة النحوية الكوفية ، وقد كان مؤدبا لأبناء الرشيد في بغداد حيث زعم شيخ الكوفة أن العرب تقول : «فإذا هو اياها» ، من حيث كان يزعم سيبويه زعيم المدرسة البصرية أنّ العرب تقوله أبدا ، وإنما تقول : «فإذا هو هي» (كمال الدين الأنباري ، الانصاف في مسائل الخلاف ، ص 372 ـ 373) .

ولا ريب أن الإبراهيمي كان يعلم أن عبد الحي ، وأمثال عبد الحي ، كانوا يعرفون عن هذه الحادثة النحوية أطرافا من الأخبار ، فأراد أن يبدي لهم أن لديه منها أيضا إلماما ، وأنه أكثر من ذلك طبقها في كتابته ، وهو ما لم يكن بالقياس اليهم شيئا ميسورا .

3 ـ نلفيه ينشئ بيتا من الشعر يرتجزه ليبكّت به خصمه ، ويذبل به رسمه ، ويفحم به وهمه ، فيرتهب ويرتعب ، ويعلم أن بالجزائر رماحا .

4 ـ يومئ إلى عبارة لأحمد شوقي ، وهو الشاعر الذي كان الناس إلى ذلك العهد الذي كتبت فيه المقالة يزعمونه ، ولا سيما في بعض بلدان المشرق العربي ، أميرا للشعراء ، على الرغم من أن هذا التلقيب أو التأمير لم يكن

في تاريخ الأدب العربي الحديث أسخف ولا أتفه ولا أدعى إلى الضحك منه .

5 ـ يشير الشيخ ، من طرف خفيّ ، إلى قضية الإعجاز التي شغلت المفكرين المسلمين قرونا طويلة فدبجوا حولها دراسات كثيرة لعل أروعها وأعلاها شأنا «إعجاز القرآن» لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاّني المتوفي سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة ، ثم «بيان في إعجاز القرآن» لأبي سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (319 ـ 388 هـ) ، ثم «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (296 هـ ـ 386 هـ) ، ثم «الرسالة الشافية» لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفي سنة 471 هـ ، ثم ما كتب عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» .

6 ـ يرمي الشيخ من وراء ذكر التراجم وأصحابها إلى أشهر مؤلفي الموسوعات الأدبية والجغرافية كياقوت الحموي وابن خلكان وسواهما ممن كتبوا تراجم للشعراء والنحاة والفقهاء والأطباء ، كما كانوا كتبوا موسوعات حول الصحابة والتابعين من قبل .

7 ـ توحي عبارة «من أعاريب وأعاجم» (من أصحاب التراجم) بأنّ الشيخ كان يريد أن يؤكد أيضا بأنه

على علم واطلاع بسيرة أولئك الموسوعيين الذين سخّروا أقلامهم في خدمة الرجالات والمفكرين على اختلاف نزعاتهم ، وتباين نحلهم وآرائهم ومواقفهم عبر التاريخ الطويـل .

8 ـ ذكره البرقية المحمولة إلى الأقطار الغربية والشرقية ينشأ عنه حتما معرفة بالجغرافيا ، وإلمام بشؤون السياسة ، ودراية عميقة بقضايا العصر والتكيف معه . فبعد أن كان الشيخ عاج على التراث ، خلص إلى المعاصرة فنشب فيها قلمه . فكأنه كان يجمع إلى الثقافة التراثية المعمقة ، ثقافة العصر وأفكاره . وفي ذلك كمال المثقف ونضجه الفكري .

والحق أننا لو تقصينا هذه المقالة الطويلة التي دبجها يراع الشيخ ، ثم استخرجنا عناصرها التراثية ، والقضايا الفكرية التي يثيرها ، والتي يوميءُ اليها خصوصا ؛ لخرج هذا الفصل وحده في مجلد . ولعل ذلك لا غناء فيه ، ولا طائل تحته . فحسبنا هنا الإيماء إلى خاصية من خصائص هذه المقالات الإصلاحية الثلاث اللواتي دبجهن الشيخ حول عبد الحي الكتاني الذي كان يلم على الجزائر فيؤلب زواياها على جمعية العلماء ، ويضري رجالاتها على المصلحين ويغريهم بهم إغراء ، ومن ذلك مساهمته الخصيبة في مؤتمرات الزوايا التي كانت تعقد بالجزائر من حين إلى حين .

ويبدو أن الشيخ أَسِيَ أعمق الأسى لانعقاد هذا المؤتمر الذي كان يعده مأجورا موزورا . ولا أدل على ذلك ، في رأيه ، من أن يتزعم مجالس تلك المؤتمرات الطرقية «الدائم والهائم» (يريد الشيخ بالدائم إلى الشيخ مصطفى القاسمي لأنه كان مقيما ، و «الهائم» إلى الشيخ عبد الحي الكتاني لأنه كان كثير التظعان) . فقد انعقد مؤتمر الأئمة الرسميين في شهر يناير من سنة ثمان وأربعين . أما مؤتمر الزوايا فقد انعقد في خامس عشر مارس من السنة نفسها بضريح الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجرجري صاحب الطريقة الرحمانية التي كانت منتشرة بالجزائر وتونس . وانعقاد ذلك المؤتمر :

1 ـ من حيث الزمان بُعَيْدَ مؤتمر الأئمة الرسميين الذين كان للعلماء معهم ، وفي طليعتهم الشيخ ، طوائل لا تنتهي ، وتنافس لا حدود له . وفي سلسلة المقالات ، والتي سنومئ اليها في هذا الفصل ، والتي دبجها الإبراهيمي تحت عنوان : «فصل الدين عن الحكومة» موقف واضح من هيئة الأئمة الذين كان يتزعمهم الشيخ العاصمي . ولم يتردد الشيخ في الإفتاء ببطلان الصلاة وراء أولئك الأئمة الذين كان الاستعمار الفرنسي هو الذي يعينهم ، بعد التروي ... ذلك بأن «تولّي الإمامة من حاكم مسيحي ، باطل . وأن طلب الإمامة من ذلك الحاكم قريبة فوق

الباطل . وعليه ، فالصلاة وراء إمام معين من ذلك الحاكم باطلة . ومن ادعى خلاف هذا فهو يكذّب بالقرآن ، كما هو كاذب على أبي حنيفة النعمان» (عيون البصائر ، 146) .

وكذلك نلفي الشيخ يفتي جهارا ببطلان الصلاة وراء العاصمي ، المفتي الحنفي ، واضرابه ، ففجر موقفا دينيا بالجزائر وزاده تضريما . وإذا كان الشيخ أفتى بمثل ذلك فقد كان منتظرا منه أن يكون سيئ الرأي جدا في انعقاد مثل ذلك المؤتمر المشبوه ، وأنه لم يكن يراد به وجه الله ، ولا مصلحة الشعب الجزائري .

2 ـ من حيث المكان نجد الطرقيين يختارون من بين الأقطار المغربية الثلاثة : الجزائر ، ومن أرض الجزائر يؤثرون ضريح الجرجري ، صاحب الطريقة الرحمانية . ولعل في هذا ما فيه من الدلالة . فكأنما الطرقيون ، في الشمال الأفريقي كله ، وحدوا صفوفهم من أجل الثبات لحملات جمعية العلماء التي كان يمثلها الشيخ الإبراهيمي .

من أجل ذلك نلفي الشيخ ينحي عليهم باللوائم الشديدة ، وينعى عليهم موقفهم المتخاذل من قضية الشعب الجزائري منذ مؤتمرهم الذي كانوا عقدوه بالجزائر . والحق أن الأمر يتعلق بمؤتمرين إثنين لا بمؤتمر واحد : الأول انعقد في

سنة سبع وثلاثين ، والثاني في ثمان وثلاثين . ولاحظ الشيخ أن الذي فصلهم من زمان بين المؤتمرين لم يؤثر فيهم فتيلا ، ولم يزجرهم فيزدجروا ، ولم يعظهم فيتعظوا ، فظلوا على سيرتهم الأولى : «لم تؤثر فيهم ، يقرر الشيخ ، أحداث الزمن ، ولم يتأثروا بما حلّ بالأمة من محن ، ولم تخرق آذانهم هذه الأصوات المتعالية ، ولا انتهى إلى إحساسهم شيئ من هذه اليقظة المتفشية في الأمة ، ولا وصل اليهم أثر من هذا التطور الذي غمر العالم ، وأنهم مازالوا آلات صماء في يد الاستعمار ، يصرفها متى شاء ، لما شاء . بل الواقع أنهم ازدادوا تعلقا به ، وطاعة له ، بقدر ما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ... وقد حلت المصائب بهذه الأمة وهؤلاء القوم غارقون في نومهم . وامتلأت السجون والمعتقلات بالرجال وهم آمنون مطمئنون . وجاعت الأمة وما منهم إلا الطاعم الكاسي . وأن الصحف لمنشرة بين أيدينا بما أخذوا من المؤن باسم الزوايا ، وبما باعوا منها في السوق السوداء ... فلهم الويل ! أهي زوايا ، أم متاجر ؟ .. (م . س . ، 432) .

فالشيخ هنا ينعى على موقف الزوايا المتخاذل أثناء الحرب العالمية الثانية ولا سيما في الأيام المدلهمات التي وقعت فيها مذابح الشرق الجزائري ... ذلك الموقف الذي كان

يباركه عبد الحي الكتاني ويروّج له ، كما نقرأ ذلك في مواطن متعددة من المقالة التي روينا منها هذا النص القصير. ونجد الشيخ يصليهم بيراعه الملتهب حيث يقرر في شأنهم بأنهم :

1 ـ لم يتطوروا شيئا طوال عشر سنوات (من سبع وثلاثين إلى ثمان وأربعين من هذا القرن) ؛ وانعدام التطور في الفكر والسلوك لا يدل إلاّ على الجمود العقلي ، أو المكابرة والتعصب ، على الرغم من مداهمة أحداث الحرب العالمية الثانية التي غيرت خريطة الأرض وكيفية التفكير ، وطريقة العيش ، وفلسفة الرؤية إلى الأشياء والأحياء .

2 ـ لم يعيروا أي أذن لما ألمّ بالشّعب الجزائري من محن ، ولما جلب عليه الاستعمار أيام المجازر التي ساق فيها الأبرياء إلى المقابر بالجملة ، ودعاهم إلى المنايا دعوة جفلى ، فبغى وطغى ، وداس وعاث ، ولطخ أصابعه بالدماء الحارة التي أفضت بشجرة الحرية إلى الإثمار والإيراق .

3 ـ ان شيوخ الزوايا استناموا إلى الاستعمار ، وخفضوا له جناح الذلّ من المودة والاكبار حين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، على حد تعبير الشيخ المقتبس من القرآن الكريم . ونلاحظ أن الشيخ هنا يقذف الطرقيين

بأنهم استعذبوا الطمع في مال الاستعمار وهو قذر ، كما كانوا يؤثرون الدعة بنكوصهم عن النضال ، ساعة النضال ، وإقصارهم عن السعي إلى الطِّلاَبِ بحقوق الشعب الجزائري المهدورة ، وحريته المقهورة .

4 ـ أصاب الشعب الجزائري ما أصابه من جوع وفقر وعرى وبؤس وبلايا لا يأتي عليها الحصر ، لظروف الحرب العالمية الثانية التي أردفت عليها سنوات عجاف من القحط ، فانتقى الناس العظام ، وقضموا اليابس ، وبحث فقراؤهم عن الطعام في مزابل أغنيائهم ، وعريت أجسامهم فذلوا ، ومرضت أبدانهم فهزلوا ، حتى أمسوا خلقا جديدا ...

ولكن أولئك الذين يومئ الشيخ اليهم لم يصابوا بشئ مما أصاب هذا الشعب لتمكّنهم من النعمة والنعيم ، ولطفوح أكفّهم من الصامت ، ولحفول معاطنهم من الناطق . فمرت المحنة وهم في نعيم مقيم .

ونلاحظ بأن الشيخ يقصد بقوله «الطاعم الكاسي» (ونورد هذا للقراء غير المتمكنين من الإلمام بالبلاغة العربية التقليدية ، والأدب العربي القديم) إلى بيت الحطيئة الشهير :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي أنه يتهم هؤلاء المتصوفة بأنهم كانوا يطعمون ملء بطونهم ، ويرتدون ملء ظهورهم ، دون أن يتأثروا بظروف المذابح ، ولا بسني القحط ، إذ كانوا أثراء لدى استعمارهم بتعهدهم بعطاياه ، ويلذذ لهم الحياة لأدنى مناسبة . ولم يكن يأتي ذلك ظاهرا حتى يردفه بالباطن : فتتعدد العطايا ، وتتكاثر الخطايا ، وتعم الشعب الرزايا والبلايا ...

5 ـ أن هؤلاء الطرقيين لم يتورعوا في بيع ما أغدقته عليهم يد الاستعمار السخية معهم ، إلى البؤساء من فقراء الشعب الجزائري الذي كان يعاني من سكرات المجاعة ما يعاني ؛ فإذا أولاء يربحون مرتين ، ولكنهم كانوا في حقيقة أمرهم يخسرون مرتين : حين كانوا يبيعون ضمائرهم إلى الاستعمار بالمجان ، ثم حين كانوا يجلبون ببلاياهم وطوائلهم على فقراء الشعب الجزائري وضعفائه .

ومن الواضح أنه كان لعبد الحي الكتاني في كل ذلك نشاط حثيث ، وسعي كثيف ؛ وهو شيء جعل الشيخ يربط نشاطه هذا بما كان الاستعمار يدسه للحركة الوطنية ، والحركة الإصلاحية من دسائس ، ويكيده لهما من مكائد . ومن ذلك دسه هذا الكتاني يرجف في ديار الجزائر فيوعبها إثما وفسادا ؛ فكان « كالدرهم الزائف ، كما يقرر الشيخ ، لا يدخل في معاملة إلاّ كان الغش والتدليس واضطراب

السوق . وأنه لا يعرف العالي والنازل ، والمدبج والمرسل ، إلا في رواية الحديث ... أما مع الاستعمار فإنه لا يعرف إلا التلقي والمباشرة والاتصال ، وأنه تاجر باع في المقايضات باسم الدين والعلم والطرقية . والتاجر الحاذق لا يعجزه إذا بارت سلعته في موطن ، أن يضرب في الأرض ويشد الرحال (م . س . ، ص . 429) .

فعبد الحي الكتاني في رأي الشيخ :

1 ـ درهم لا يجوز ، فلا يتولج في تعامل تجاري بين قوم إلا تولّج اليهم معه الغش والتدليس . وينشأ عن ذلك كساد في أسواقهم ، واضطراب في تجارتهم ، وبوار في بضائعهم المعروضة . ولا شئ ، لعمري ، أسوأ من عملة زائفة تغشى سوقا . والقصد من وراء كل هذا التصوير المادي للتجارة والربح ، الجانب المعنوي المجرد ، والوجه الروحي الخالص .

2 ـ يخاطب الشيخ عبد الحي الكتاني باللغة التي يؤثر ، وهي مصطلحات الحديث ، فيتهمه بأنه إذا كان يؤثر في رواية الحديث ما اتصف بصفات العالي أكثر مما اتصف بصفات النازل («فالعلوّ أشرف من النزول ؛ ففائدة الإجازة المطلقة من جنس فائدة الاسناد العالي ، بالنسبة إلى النازل ، إذا لم يفد زيادة في العلم) (ابن تيمية ، مجموع

الفتاوي ، 18 ، ص . 36) . كما يؤثر المدبج والمرسل ، فإنه في سلوكه مع الاستعمار له سيرة أخرى حيث لا يبتغي إلا التلقي والمباشرة والاتصال في تلقّي الأوامر كراوي الحديث المتحصف المتشدد الذي لا يرتضي بالحديث المنقطع الاسناد ، وإنما يحرص على الْمُتَّصِلَهُ ، ويحرص على المشافهة والمناولة ، لا على المكاتبة وبعد المباشرة .

ونؤكد تارة أخرى بأن الشيخ كلما أنشب قلمه في سيرة الكتاني ، كان يصطنع معه اللغة التي يفهمها أكثر ، فكنت تراه يلحّ على كثير من هذه المصطلحات التي تروج في سوق رواة الحديث ، كما يتجلى ذلك في آخر مقالته التي كنا عرضنا لها آنفا ؛ فقد ختمها بقوله : «... ولعل هذا الأسبوع هو أبرك الأسابيع على الشيخ ؛ فقد أملينا فيه مجالس في مناقبه جاءت في كتيب ، سميناه ، بعد الوضع ، «نشر الطيّ ، من أعمال عبد الحيّ» . فإن تاب وأدناه ، ووفينا له بما وعدناه ... وإلاّ عممناه بالرواية ، وأذنّا لعبد الحي في روايته عنا للتبرك واتصال السند ؛ وهو أعلم الناس بجواز رواية الأكابر عن الأصاغر» (عيون البصائر ، 618) .

فالشيخ الإبراهيمي يصطنع هنا في هذه الفقرة القصيرة طائفة من مصطلحات علماء الحديث ، منها :

* الوضـــع ؛

• الروابسة ؛
• الاتصال ؛
• السنـــد ؛
• جواز رواية الأكابر عن الأصاغر...

3 ـ أن الكتاني لا يعدو أن يكون تاجرا جشعا ، قد برع في المقايضات ، وامتاز في تسويق السلع وترويج البضائع في أكسد الأسواق وأسوئها نفاقاً . امّا أن جاء على سلعته طائف من البوار ، فلن يعجزه أن يضرب في الأرض ، ويشد الرحال إلى أنأى الأرجاء شدا : التماسا لنفاق تجارته ، ورغبة في رواج سلعته .

وواضح أن السلعة البائرة هي أفكار الكتاني وآراؤه ومساعيه في المغرب الأقصى . أما الأرض التي ضرب فيها شادا اليها الرحال شدا ، فهي أرض الجزائر. فالسلعة الكاسدة بالمغرب ، أصبحت نافقة بالجزائر . والمرَوِّجُ لها إنما هم الطرقيون ، وإلا لكان البوار طاف عليها هنا ، كما كان عليها هناك .

وكذلك نلفي موقف الشيخ من الكتاني موقف المصلح المفكر الأديب معا ، يصطنع في مخاطبته العلم والخيال ؛ كما نلفيه يسخّر المضمون الدينيّ في الإقناع والحجاج ؛ والأسلوب الأدبي العالي في التبكيت والإيلام ؛ حتى يكون

أشد تأثيرا في الخصم أولا ، ثم في قراء البصائر الثانية مشرقا ومغربا ، ثانيا . وقد وقع له شيء كثير من ذلك .

3 ـ موقفه من قضية «فصل الدين عن الحكومة» :

يعني مصطلح «فصل الدين عن الحكومة» على ذلك العهد أن الإدارة الاستعمارية لم يك من حقها في شيء التدخل في شؤون الدين ، ولا سيما الدين الإسلامي . فلم يك من حقها أن تعيّن الأئمة ، وتجري عليهم المرتبات (وقد رأينا في بعض هذا الفصل كيف كان الإبراهيمي يقول بعدم جواز الصلاة وراء أولئك الأئمة الذين كان الاستعمار يعينهم ويفرض لهم المرتبات) ؛ كما لم يكن من حقها ، نتيجة لذلك ، التصرف في أمر المساجد وأراضي الأوقاف التي كانت استولت عليها استيلاء غير مشروع ، ثم منحها المعمرين . ولم نلف أحدا من المفكرين الجزائريين طوال عهد الاستعمار الفرنسي شغل بهذه القضية على هذا النحو ، ثم جسد تفكيره في كتابات نشرها بين الناس ، ونظريات أذاعها بين القراء ، كالشيخ الإبراهيمي . فقد دبج حولها في جريدة البصائر عشرين مقالة . ويعني هذا أن الشيخ ألف حول هذه القضية كتابا مؤلفا من عشرين فصلا قصيرا : لكل فصل عنوان ، وموضوع فرعي .

والحق أن الشيخ كان في هذه السلسلة الطويلة من

المقالات كعهدنا به في سواها ، أديبا مهتاج القلم ، فنانا يبدع في تركيب البيان العربي في أسمى صوره ، وأرقى مضطرباته . فنلفيه في أول مقالة له من هذه السلسلة يفتتحها بسوق اللوم على الحكومة الاستعمارية في الجزائر ، فيدبج بشأنها بأنها لم تبرح «تمزج الصلف بالتصلب ، والتردد بالتقلب ، وتخلط الممانعة بالمدافعة ، وتؤيد التحيّل بالتخيّل ، وتكمل الإصرار على الباطل بالعناد فيه ، في قضية حقنا فيها أوضح من الشمس ، وباطلها فيها أعرق من الأدبار من امس .

وما تزال تهيم في أودية من الضلال ، وتتصام عن الأصوات المتعالية من أصحاب الحق ، بطلب الحق ، وتتعامى عن الحقائق التي بيناها لها وعن النذر التي جلتها عليها الأيام ، وتحن إلى تقاليدها الاستعمارية البالية في التسلط على ضمائر المستضعفين ومعنوياتهم لتفسدها عليهم ؛ فهي تظهر في كل يوم بجديد ، في مسألة لا قديم لها فيها ولا جديد ...» (م . س . ، 80) .

فلعل هذا النص القصير يشكّل أمامنا فكرة عن الأسلوب الأدبي الذي كان الشيخ يصطنعه في معالجة القضايا التي يطرحها ، فهو يصور هذه الحكومة الاستعمارية تصويرا رائعا في إصرارها على التزام الصلف والتصلب معا حين كان الأمر يتصل بمصالح المواطنين الجزائريين ، فكنت

تراها تمانع طورا ، وتدافع طورا ، كما كنت تراها تحتال في الممانعة والمدافعة طورا ، وتصرف وهمها إلى اصطناع الخيال في طلب الطوائل ، وتتصور ما لا يتصور ، وتفترض ما يستحيل افتراضه طورا آخر . مع أن الأمر لم يك شيئ على الأرض أبسط منه مركبا ، ولا أهون مسلكا : فلا حق لحكومة كانت تزعم أنها لائكيّة ، أن تتحكّم في أمر دين لا تكنّ له إلا العداوة والبغضاء . ولكن تلك الحكومة لضلالها البعيد ، وأَحْنِهَا الدفين ، لم تكن تزال تهيم في شعابها الحزنة ، وتظلع في مسالكها الوعرة : تائهة باغية ؛ فلا صوت الحق كان ينفذ إلى مسمعها ، ولا صرخات المظلومين التي كانت تلتمس العدل والحكمة كانت تبلغ منها بعض المبلغ : بل لم يكن يزيدها ذلك إلا عتوّا وطغيانا .

والحق أن الشيخ لم يتناول حكومة الاستعمار إلا توطئة لآخرين كانوا هم القصد من مقالاته ، ومن أولئك الشيخ العاصمي ، مفتي الحنفية بمدينة الجزائر الذي نجده يملأ حيّزا شاسعا من مساحة تفكير الشيخ في هذا المجال . فقد كان العاصمي حاول أن يثبت في وجه الشيخ ، ويؤسس منظمة الأئمة الرسميين ، وينشيئ مجلة متخلفة أطلق عليها «صوت المسجد» فأرخى له الشيخ زمنا ، وتغافل عنه حينا حتى جاء يوم كتب فيه حوله مقالة لاذعة ، ألفاظها كالشهب المحرقة ، وهي المقالة الثالثة عشرة من هذه السلسلة نلفيه

يفتتحها بقوله : «... واعجبا لما تصنع هذه الحكومة ببعض الرجال منا ، تعمد إلى الواحد منهم فتبقيه على سحنته ، ولكنها تفرغه من شحنته ...» (م . س . ، 143) .

ثم يخلص إلى الشيخ العاصمي فيكتب بشأنه قائلا : «ما أشأم العاصمي» على نفسه ! فقد سكتنا عنه فأبى ، بعد أن جارانا فكبا . وما تحدثنا عنه في الماضي إلا باعتباره أداة لا شخصا ، وما سكتنا عنه بعد ذلك إلا لأننا أوسعنا تلك الأدوات تحطيما وتهشيما ... ولكن هذا الرجل المصنوع يأبى علينا إلا أن نعتبره شيئا قائما بذاته ...

وها نحن أولاء نعود للحديث عنه مكرهين ؛ ولا نخوض من جديد في شبهاته التي يظنها حججا ، وضخضاخه الذي يراه لججا ، إذ بعض المحظور في ذلك أننا نحقق له بعض مناه ... واننا نقولها مرة أخرى في صراحة وصدق : أننا لا نعني بما نقول ذلك الرجل المدعوّ محمد العاصمي الذي شبّ في «قصير الحيران» ، واكتهل معلما للصبيان ، وشاب خادما لقاض في ديوان ... وإنما يعنينا هذا الشيء المسمى محمد العاصمي المفتي الحنفي ، الذي وسّع الشق ، بتنكره للحق ... والذي استطال بقوة الأجانب ، على ضعف الأقارب ؛ والذي سود وجه الإسلام ، بموازرة الظلام ؛ والذي جعل الإفتاء ذريعة للأفتيات ، واساءة

الأحياء حجة على إحسان الأموات» . (م . س . ، 144 ـ 145) .

فالإبراهيمي في هذا النص يثرّب على العاصمي مواقف وسيرا غير مشرقة في رأي الشيخ ، منها توسعته شقة الخُلْفِ بين الناس في الجزائر ، ومنها استظهاره على الوطنيين بقوة الأجانب المحتلين ، مع أنه كان يعلم أنّ الوطنيين لولا إيمانهم لكانوا أضعف الضعفاء ، لأنّ الاستعمار جردهم من جميع الأسلحة التي كان يمكن لهم أن ينضحوا بها . وأسوأ من كل ذلك ، كما يقرر الشيخ ، أن العاصمي اتخذ من مهنة الإفتاء تكأة ليقتات بها ويرتزق (ان كان الشيخ أراد إلى الأقتيات بالقاف) ، وتكأة للأفتيات (ان كان أراد إلى الأفتيات بالفاء) ، أي إلى ابتداع ما لم يكن في الدين .

فإذا كنا ألفينا الشيخ يصلت قلمه على عبد الحي الكتاني ، زعيم الطرقيين في المغرب الأقصى ؛ فإننا نلفيه أيضا يصلت قلمه على محمد العاصمي زعيم الأئمة الرسميين في الجزائر : ذاك حاول أن يدافع عن مصالح الزوايا التي ناصبها المصلحون العداء ؛ وهذا حاول أن ينضح عن مصالح الأئمة المنتمين إلى الإدارة الاستعمارية ، أولئك ذو كان العاصمي يتزعمهم تزعما في المقامات .

ونحن نلاحظ بأن الأسلوب الذي سخّره الشيخ

الإبراهيمي في مهاجمة العاصمي قديم جديد معا ، فهو قديم من حيث مراعاته للأصول الأكاديمية الصارمة ، ومن حيث زبرجه ووشيه ، ثم من حيث استيحاؤه لخطب الحجاج وقطريّ وعليّ ، ثم من حيث استلهامه المقامات في الخصومات بين الشخصيات العربية فيها . وهو جديد من حيث الموضوع الذي يدور حول قضية تعتزي إلى مشاكل العصر ، وتمتّ إلى صميم السياسة الاستعمارية بالجزائر على ذلك العهد .

فالإبراهيمي في هذه المقالات العشرين يمثّل موقفا ، كما كان الكتاني يمثّل موقفا معينا ، والعاصمي يمثل موقفا معينا . فالخصومة هنا ليست خصومة الإبراهيمي مع الكتاني والعاصمي من حيث هما شخصان يفكران ، وإنما هي خصومة موقف لمواقف ، وتعارض قيم بقيم . ونحن أثناء ذلك ، ولا علينا أن نقف نحن أيضا ها هنا موقفا ، نعلم أن موقف الشيخ الإبراهيمي ـ أثبت ذلك التاريخ ، ورسّخه الزمن ، وبلورته المحن ـ هو الموقف الحق .

وكذلك ألفينا الإبراهيمي ينضح عن موقفه الإصلاحي منذ عودته من المشرق العربي ، حيث كان اتصل هنالك بكثير من المصلحين وأكبرهم ، على ذلك محمد رشيد رضا ، بدمشق وسواها من مدن الشرق ـ إلى أن غادر

الجزائر تارة أخرى إلى المشرق ؛ لم تضعف له عزيمة ، ولا استكان له قلم ، ولا فتر له لسان ، ولا جبن له جنان ؛ فصل صاحب الموقف الإصلاحي الثابت ، وذا اليراع المصلت النافذ ، ينشبه في أي خصم عرض بسوء لهذا الموقف الإصلاحي في الجزائر ، فحق لنا أن نعده في كبار المصلحين في العالم الإسلامي كله في القرن العشرين .

* * *

الفصل الثالث

— ☆☆☆ —

الابراهيمي سياسيا

— ☆☆☆ — ☆☆☆ —

لا تبرح طائفة من الناس في الجزائر تزعم سرا طورا ، وجهارا طورا آخر ، بأن الشيخ الإبراهيمي لم يكن سياسيا ، كما لم يكن ابن باديس من قبله سياسيا . وإننا لا ندري ماذا يقصد هؤلاء بالسياسة : فإذا كانت الانقطاع المطلق لخدمة مبادئ حزب بمعزل عن الثقافة والفكر والدين والتعليم ، فإن الإبراهيمي ليس سياسيا وما كان ينبغي له ؛ ذلك بأن السياسة لديه لم تك إلا عبارة عن دسّ مبادئ من هذه السياسة الوطنية في التعليم والتوجيه ، وفي الدفاع عن المؤسسات الوطنية بما فيها المدرسة والمسجد ، واللغة والانتماء الحضاري للشعب الجزائري ، والتصدي للمدجلين والمضللين من بعض رجالات الطرق الذين كانوا يعيثون فسادا بأفكار عوام الشعب من العاملين والمزارعين والتجار .

ومع كل هذا فإننا ألفينا الشيخ ، وكان ابن باديس من قبله أكثر ، يعرض لمواقف ، أو تعرض له من السياسة

مواقف ، جعلتنا نعتقد بأنه ليس ينبغي إقصاؤه بأي وجه عن هذا المجال . ولو جئنا ذلك لكنا كمن فصل فرعا عن أصله ، أو قطع غصنا عن شجرته ، أو أبعد نجلا عن أبيه .
فهل الذي كتب عن فلسطين ونضح عنها في المواقف المدلهمات ، وهاجم الخونة في حقها ، والمتخاذلين عن نصرتها من ملوك العرب المتقاعسين : لا يكون معدودا في السياسيين ؟ وهل السياسي هو الذي يتحدث ولا يكتب ، فقط ؟ وإذا عددنا ما دبج الشيخ في باب السياسة ليس سياسة ، ففيم نصنف هذه الكتابات ؟ وهل هي حقا مما يندرج في سلك الأدب الخالص ، أو الدين الخالص ، أو الإصلاح الخالص ؟ وإذن ، فإلى أيٍّ من أجناس الأدب نعزو هذه السلسلة من المقالات التي دبجها الشيخ عن قضايا سياسية حميمة ، كفلسطين والتفريط فيها ، ثم الصمت المخزي عن تقسيمها ؛ وكقضية توحيد الأحزاب السياسية في الجزائر والدعوة الصراع إلى إجماع أمرها ؛ بل وكقضية فصل الدين عن الحكومة ؛ وكقضية التعليم العربي وموقف الاستعمار الفرنسي منه ...؟ فكل هذه القضايا مما يلج حتما في مجال السياسة ولا يعتاص أن يكون منها ، معتزيا اليها .
ثم ما قول أولئك الذين يزعمون أن الشيخ ، ولا أصحاب الشيخ ، لم يكونوا ساسة في شئ ، ولا أصحاب مواقف

سياسية ، في المحن التي تعرض لها ، والخطوب التي أوقعته فيها السلطات الاستعمارية ففرضت عليه الإقامة الإجبارية بأفلو ، وحظرته من الذهاب إلى قسنطينة ليحضر تشييع جنازة ابن باديس ، وعرّضته لطوائل أيام مجازر الشرق الجزائري ؟ ثم ما بال قضايا أخرى أجرى فيها الشيخ يراعه ، واستعرض حولها باعه : فحاول أن يحلل مواقف ، أو حاول أن يعبر عن موقفه هو حيالها على أدنى تقدير ، ولكن بأسلوبه الخاص المفعم بالعواطف الجائشة ، المضمّخ بالوطنية الدافقة ؟ ثم ماذا ؟ وماذا عن مشاركته في الوفد الجزائري الذي يمّم فرنسا لمحاولة التفاوض مع السلطات الفرنسية ابتغاء الحصول على إصلاحات سياسية في الجزائر ، وفشل أولئك الذاهبين إلى باريس فشلا ذريعا ؟

ولا ينبغي أن تكون مادة هذا الفصل وتركيبها إلا محاولة منا للإجابة عن بعض هذه الأسئلة التي أثرناها هنا ، والتي نؤثر الشروع في الإجابة عن آخرها طرحا .

1 ـ مشاركة الشيخ في الوفد الإسلامي :

والوفد الإسلامي ، أو الوفد فقط ، كما اصطلح على تسميته في الصحافة الوطنية يومئذ بالجزائر ، هو عبارة عن شخصيات وطنية جزائرية ائتمرت بمدينة الجزائر في الأعوام الثلاثين من هذا القرن ، ثم قررت التظعان إلى باريس من

أجل المطالبة ببعض الحقوق التي منها ، بالقياس إلى المصلحين الجزائريين ، حرية الممارسة الدينية وعدم إخضاعها لوصاية السلطات الاستعمارية بالجزائر ، وحرية التعليم العربي وعدم اضطهاد المعلمين الأحرار ، وعدّ اللغة العربية لغة رسمية ثانية إلى جانب ضرتها الفرنسية يومئذ ...

وقد كان الأصل في بعض هذه الإصلاحات السياسية الضئيلة الشأن من إثارة موريس فيوليت الذي عدته مجلة الشهاب الباديسية «صديق الجزائر الحميم» (ج . 8 ؛ م . 9 ، يوليو 1933 ، ص 332) . وقد كان فيوليت قدم مشروعا إصلاحيا إلى مجلس الشيوخ الفرنسي تمنح بمقتضاه بعض الحقوق الضئيلة الشأن لفئة خاصة من الجزائريين كالمثقفين والأعيان دون سواد الشعب الجزائري في طبقاته الدنيا . فما هو إذن مشروع فيوليت ونحن نثير الحديث حوله الآن ، وهنا ، ثم باعتبار أن الشيخ اقتنع بصلاحه ؟ لقد وجزت مضمونه مجلة «الشهاب» بكونه عبارة عن «إدخال الطبقات الأهلية المتنورة في دائرة الإنتخابات الفرنسية لمجلس الشيوخ والأمة ، وتعميم الجنسية الفرنسية على كل تلك الطبقات والموظفين وحاملي الشهادات العلمية ، وأضرابهم ؛ بحيث يكون الجميع فرنسيين يتمتعون بسائر الحقوق . وينمو عددهم بالتدريج شيئا فشيئا إلى أن تكون

منهم قوة في البلاد ذات بال . وبما أنه قد تقرر من مختلف النصوص الشرعية .والأحكام الفقهية أن المتجنس بجنسية أجنبية يعد مرتدّا عن الإسلام لقبوله طوعا واختيارا الخروج عن بعض أحكام القرآن ، فإن م . فيوليت يرى ، لملاقاة ذلك ، وجوب النص على أن المسلمين الذين ينالون الجنسية الفرنسية بهذه الطريقة يحتفظون ، مع تجنسهم ، على أحكام الشرع الإسلامي ..» (م . س .) .

فذلكم إذن هو المشروع المشؤوم الذي اقترحه موريس فيوليت الاشتراكي الهوى السياسي إلى مجلس الشيوخ الفرنسي لمنح الجنسية الفرنسية لنخبة قليلة من الجزائريين الأغنياء ، والمتعلمين .

والعجب كل العجب من أولئك المستعمرين وما كانوا يسقطون فيه من تناقضات منطقية تضحك حتما المؤرخين المحايدين ، والمؤرخين النزهاء : فمن وجهة ألفيناهم ينادون بفرنسية الجزائر ، وأنها أرض فرنسية إلى الأبد ، ومن وجهة أخرى كانوا يعدون الجزائريين جزائريين مسلمين فقط ، أي أنهم دون الفرنسيين الحقيقيين في الحقوق ، وأكثر منهم في الواجبات والطوائل . فإذا كانوا محقين في أن الجزائريين جزائريون مسلمون فقط. ، فقد كانوا على باطل في اعتبار

الجزائر فرنسية ، واعتبار الجزائريين دون الأوروبيين الذين كانوا استوطنوا الأرض الطهور واستولوا على أرزاقها ، واستحوذوا على أقوات أهلها حتى أجاعوهم .

ونحن إذا تأملنا موقف الاستعمار الفرنسي من الشعب الجزائري لم نجده يختلف في شيئ كثير عن موقف بعض الأنظمة العنصرية على عهدنا الراهن ، وبوضع الاستعمار الفرنسي في هذا الموقف ، وهو صحيح صادق ، ينطبق عليه كل الانطباق ، يتضح تفسير ذلك التناقض السياسي المضحك . وحينئذ يكون الجزائريون لا يشكلون مفهوم شعب ، بله أمة ، وأن الفرنسيين في الجزائر ليسوا من الجزائريين في شيئ لأنهم لو كانوا منهم لاعتبروهم شعبا لا مناص من انتمائه إلى حضارة ما ، وعرق ما ، وتاريخ ما ، وأن هؤلاء الفرنسيين لم يجيئوا إلا من أجل الاستعلاء والاستحواذ على أرزاق الجزائريين وحرمانهم من حقوقهم السياسية طورا ، والمدنية طورا آخر . فكأنما الجنسية الفرنسية كانت من الأمور المقدسة التي لا ينالها إلا أولوا العلم والفضل والشأن ، وكأن الجزائريين لم يكونوا في مستوى تلك الجنسية إلا من خان منهم وطنه ، وعق شعبه ، وأنكر ماضيه وتاريخه . فكانت تلك الجنسية بالقياس إلى بعض الجزائريين تعرض في سوق النخاسة ، ينالها من يشأ ، ويضاجعها من سبق اليها .

فلا شيئ إذن كان أزهد منها . وكانت بالقياس إلى آخرين غاية لا تدرك ، وطائلة لا تنال ، وحلما لا يحقق . مع أن الشعب الجزائري شيئ واحد ، بل رجل واحد ، بل كيان واحد ، فلم وقع الفرنسيون في تلك التناقض ؟

وإذا كان الفرنسيون بحكم استعماريتهم يقعون قصدا في ذلك التناقض التاريخي المضحك حول منح الجنسية الفرنسية لبعض الجزائريين من النخبة ، فإن الوطنيين الجزائريين ، في معظمهم ، كانوا يرفضون هذه الجنسية ويعدونها وطنية عظمى ، كما كانوا يعدونها كفرا وانسلاخا عن الدين الإسلامي . وقد تراجع العلماء المصلحون أنفسهم عن هذا الموقف حين تبينوا ما فيه من خبث وخطر .

ولكننا الآن إنما نحن بصدد الحديث عن مشروع فيوليت ، فلنؤب اليه . وعلى الرغم من أننا لا نبتغي تحليل مضمون المشروع الفيوليتي وأبعاده الخبيثة في التمييز بين طبقات الشعب الجزائري فإذا بعض أفراده من السادة ، وبعضهم من العبيد ، وبعضهم الآخر من أشباه العبيد ، فإننا مع ذلك ، نلاحظ ذلك . وأن تعجب من انخداع بعض الوطنيين لهذه اللعبة السياسية الخبيثة حاسبينها ذات غناء للشعب الجزائري وحركته الوطنية .

ولكن الأعجب من كل ذلك أن الحكومة الفرنسية

الاستعمارية التزمت سيرة الصلف والتآبي ؛ متعالية متجاهلة ، مترددة حائرة : بين أن تسمع إلى أصوات الحق المدوية ، وبين أن تتصام ، عنها ، فآثرت الاختيار الثاني الذي كان ألأم بأمرها ، وأنسب لسيرتها . من أجل ذلك ألفيناها لم تستجب إلى شيء ذي شأن مما تقدم به فيوليت وقبله بعض المعتدلين من الجزائريين ، على الرغم من أن مشروع فيوليت لم يرض إلا هيئات سياسية معتدلة كالعلماء والنواب ، أما المتشدقون منهم فقد لاحوه وناوأوه مناوأة شديدة .

وإذن فإن تلك المطالب على ضآلة قدرها ، وقصورها عن أن تبلغ درجة الطموح الوطني المتوثب ، مما أفضى ببعض الأحزاب الوطنية ، كما أسلفنا ، إلى رفضها جملة وتفصيلا كحزب الشعب الجزائري الذي لم يشارك في ذلك الوفد لعلمه سلفا بفشل تلك المساعي من وجهة ، وعدم رقيها إلى مستوى طموح الشعب الجزائري من وجهة أخرى ، وهو الشعب الذي كان شديد التطلع إلى التخلص نهائيا من ربقة الاستعمار بحذافيره ـ ظلت مجرد كلام معسول مسطور على القرطاس ، وآب الوفد الجزائري من باريس وهو يجرّ أذيال الخيبة والخسران والندم ...

ومهما يكن من أمر ، فإن الإبراهيمي كان أحد أعضاء

الوفد الإسلامي الذي كان يرأسه الدكتور ابن جلول .
ولقد كشف لنا عبد الحميد بن باديس ، فيما كتب من مذكرات عن هذه الرحلة السياسية ، عن تناشد الشيوخ الثلاثة الأشعار (وهم ابن باديس ، والإبراهيمي ، والعقبي) وذلك فويق الباخرة التي كانت تمخر بهم عباب البحر الأبيض ، ميممة الديار الفرنسية : كيف كان الإبراهيمي ينثر على الرفيقين من حافظته كتاب «نفح الطيب» لابن الخطيب ...

كما كشف لنا الشيخ ابن باديس عن أن الإبراهيمي تدخّل لدى مقابلة فيوليت فشكا له «الظلم الواقع من الإدارة الجزائرية (يريد إلى الإدارة الاستعمارية في الجزائر) في هذه الناحية من حياة المسلمين (يقصد الشيخ إلى الحرية الدينية) ؛ الظلم الذي لم يبق فيه من خفاء ، كما لم يبق عليه من صبر» (آثار ابن باديس ، 337/3) .

بيد أن الحكومة الفرنسية ، كما وصفها الإبراهيمي من بعد ذلك بزهاء ثلاث عشرة سنة ، كانت لا تفتأ «تمزج الصلف بالتصلب ، والتردد بالتقلب ، وتخلط الممانعة بالمدافعة ، وتؤيد التحيّل بالتخيّل ، وتكمل الإصرار على الباطل بالعناد فيه ... وما تزال تهيم في أودية من الضلال ،

وتتصامّ عن الأصوات المتعالية من أصحاب الحق ، بطلب الحق» (عيون البصائر ، 80) .

فلم يكن إذن مصير المطالب التي تقدم بها الوفد الجزائري ، ومنها ما تحدث عنه الشيخ الإبراهيمي من انعدام حرية الممارسة الدينية ، واضطهاد العربية وأهلها في الجزائر ، غير التصامّ والتعامي وعدم الاكتراث . بل كأنما الفرنسيون أرادو أن يُرُوا أولئك الذين كانوا يحسبون المعايشة ممكنة بين الأوربيين والجزائريين بأن ذلك أمر مستحيل ، وأن الحقوق السياسية كلها تمنح للأوربيين خالصة ، وأنه لم يكن بدّ للجزائريين من تجرع الذل ، ومعاناة الشر ، ومكابدة الاضطهاد في صور مختلفة ، وأنه لم يكن ، هناك أمل في حكومة استعمارية كان قصاراها إجاعة الشعب الجزائري وإذلاله ، وتمريغ كرامته في الرغام ، وتعفير وجهه بالقتام ، ومحاولة فصله عن أصله ، والكيد له حتى يتنكر لهذا الأصل فيمسي بدون ماض ولا حاضر ولا مستقبل . وأن بعض ذلك لكان مندرجا في سلوك استعماري محتال ، غايته إيهام الشعب الجزائري بأنه ، كما أسلفنا ، لا ماضي له . وأن مستقبل النخبة منه مرتبط بفرنسا وحدها ، أما سواد الشعب الجزائري فلم يكن حديث عنه إلا من حيث هو آلة مربحة للعمل ، بل للأشغال

الباهظة التي لم يكن يقدر عليها إلا من أوتوا عضلات قوية ، وأجساما شديدة ...

وإلا فما بال حكومة الاستعمار تصدر مرسوما ، بعد مساعي الوفد الإسلامي الذي كان الشيخ من بين أعضائه ، في ثامن مارس ، من سنة ثمان وثلاثين من هذا القرن تحظر فيه تعليم اللغة العربية بالجزائر إلا برخصة . وقد كان الناس يعلمون جميعا بأن هذه الرخصة كلمة حق كان يراد بها باطل ، إذ لم تكن تعطى إلا لفئة قليلة ممن يطمئن اليهم الفرنسيون . وإذا كان الفرنسيون لم يمسوا حرية الممارسة الدينية ظاهرا ، وإنما مسوا حرية تعليم اللغة العربية فقط ، فإن القضية في جوهرها كانت تشمل الدين واللغة جميعا ، للعلاقة الجدلية بينهما حين يتصل الأمر بالدين الإسلامي ، ولغة الدين الإسلامي . فكيف كان يجوز تعلّم الدين في الجزائر بمعزل عن العربية ؟ ثم كيف كان يجوز للجزائريين أن يتخلوا عن لغتهم وهم كانوا يعلمون أنها الذريعة الوحيدة للإنتماء إلى الحضارة العربية ؟ وما هو البديل اللغوي لدى التخلّي ؟ لقد كان واضحا أن الفرنسيين كانوا يودون أن أن يتحدث الجزائريون اللغة الفرنسية ويتخذوها لغة عمل ودين . وهم في الحقيقة لم يصنعوا شيئا غير هذا منذ وطئت أقدامهم الجزائر إلى أن طردوا منها ؛ فقد كان إذن من

غاياتهم فصل هذا الشعب عن حظيرة انتمائه الحضاري .

وأن الذي يعنينا في كل هذا ، أن الشيخ الإبراهيمي شارك في الوفد الإسلامي الذي ذهب إلى باريس لمقابلة المسؤولين في الحكومة الفرنسية يومئذ . ولكن كل المساعي الطيبة خابت ، وكل الآمال الطافحة ضاعت . وأما ماء الوجه الوطني فأمسى مهراقا ، وأما الكرامة فقد مسّت وجرحت .

والآن وقد مضى ذلك الزمن فأصبح ملكا للتاريخ وحده ، وذهب كل أولئك الرجال ، فهل من حقنا ، وواجبنا أيضا ، أن نتساءل : لم جاءوا ذلك وقد كان أولى لهم أن لا يجيئوه ؟ ولكن قد لا يكون من حقنا التثريب على قوم اجتهدوا في سلوك سبيل سياسية ؛ فلعل عذرهم في ذلك أن يكون ماثلا في استنزاف كل الوسائل مع الاستعمار ، ومنها الملاينة والمداهنة وارخاء الحبل على نحو ما ، في مرحلة تاريخية ما ، لمحاولة افتكاك بعض الحقوق المهدورة ... ولكن هيهات ، فقد وجدنا الاستعمار الفرنسي المتعنّت لم يلزم الوفد الجزائري إلا أذنا صماء ، وعينا عمياء ، وقلبا متبلدا ، وطبعا متشددا .

وإذن ، فإن مساعي ذلك الوفد ، إذا حق لنا الاعتذار

له ، تعد من التجارب النضالية التي ولجت تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية من بابها الرحيب .

2 ـ موقف الشيخ من توحيد الأحزاب الجزائرية :

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها والشعب الجزائري لا يملك أي منظمة سياسية رسمية ، وما وضعت الحرب الثانية أوزارها إلا ولهذا الشعب من الأحزاب السياسية ، والهيئات الدينية ، والجمعيات الثقافية ما يملأ الأرض ملأ ، ويكظّ السماء كظا . فقد عرفت هذه الفترة ظهور حركة الأمير خالد التي انتهت بإنشاء حزب نجم شمال أفريقيا الذي انتهى إلى الحل ، فقام على أنقاضه حزب الشعب الجزائري . كما ظهر أثناء الحرب العالمية الثانية حزب البيان الجزائري الذي كان سبقه إلى الظهور الحزب الشيوعي الجزائري المسبوق بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المتبوعة بتأسيس هيئة الأئمة الرسميين ، وجامعة الزوايا الجزائرية ...

ونحن هنا لا سبيل لنا للتعصب لحزب ، والتعصب على حزب آخر ؛ كما لم يك من غايتنا تحليل مواقف كل حزب نتيجة لذلك إزاء الشعب الجزائري من وجهة ، وحيال الاستعمار الفرنسي من وجهة أخرى . ذاك شأن

المؤرخين السياسيين ، فهم وما شاءوا . أما نحن فلا سبيل لنا ، هنا ، إلا على موقف الشيخ إزاء كل هذه الأحزاب والهيئات والمنظمات التي كانت تتلاحى فيما بينها عوض أن تتلاحى مع الاستعمار المتربص بها مجتمعة الدوائر . أما موقفه من الأئمة والطرقيين فقد كنا عرفناه فيما سلف من بعض هذه الدراسة ، وقد كان موقفا معاديا مهاجما ؛ ذلك بأنّ أولئك الأئمة والطرقيين ، إذا استثنينا من قد يستثني منهم ، لم يكونوا إلا من المستنيمين للاستعمار ، من الخافضين أجنحة الذل له ، ومن الخاطبين لوده ، ومن الملتمسين لعطاياه ، ومن الطالبين لرضاه ... وأما موقفه من الأحزاب السياسية فلم نعثر للشيخ ما يدل إلا على تعاطفه ، بشكل أو بآخر ، مع هذه الأحزاب . ولكن الشيخ كان ينقم منها أنها متشتتة وقد كان يجب عليها أن تكون متحدة ، ومجتمعة الكلمة ، ملتئمة الشمل ، أحادية الموقف السياسي . من أجل ذلك نجده يبرم برما شديدا بتفرق هذه الأحزاب طرائق قددا ، وتشتتها أهواء مبعثرة ، فينادي باتحادها ، كيما يتحد من حواليها الشعب الجزائري ، وكيما لا يفقد ثقته فيها فيتيه ويضيع : «ان قوتكم في الاتحاد ، يخاطب الشيخ زعماء هذه الأحزاب ، فاتحدوا . أن الأمة من ورائكم ، وهي مختلفة باختلافكم ؛ فإذا اتحدتم اتحدت .

وأنها متألمة من اختلافكم في مثل هذا الوقت ، وفي مثل هذا الموقف ؛ وأن هذا التألم قد يفضي بها إلى اليأس (منكم) ، وانعدام الثقة فيكم ، فأنعشوا آمال أمتكم باتحادكم ، وقووا معنوياتها بجمع كلمتكم ...» (عيون البصائر ، 324) .

فهذا النص القصير الذي استشهدنا به من أصل مقالة عنوانها : «دعوة صارخة إلى اتحاد الأحزاب والهيئات» «يرينا كيف كان الشيخ يأسى لتفرق الأحزاب الجزائرية وتعددها ، واختلاف مواقفها ، وتلاحيها فيما بينها أشد التلاحي . كما ترينا كيف أن الجزائر بحكم ما تستمده من قوة ماضيها الحضاري المشرق ، المتسم خاصة بالنضال الضاري ، وردع الغزاة والمحتلين ، إذا كان لها اليوم حزب واحد هو حزب جبهة التحرير الوطني ، فإن هذا الحزب ، لا ينبغي أن يظن ذلك ظان ، لم ينشأ سنة أربع وخمسين طفرة ، ولا برز إلى الحياة من عدم ، وإنما كان خاتمة سعيدة لمراحل سياسية مدلهمة بالخطوب ، حافلة بالأحداث التي تندكّ لها الأطواد الرواسي . كما كان نتيجة حتمية لمقدمة : هي رؤية سياسية ناضجة هيّأ لها قادة الفكر الجزائريون نصف قرن من الزمان على الأقلّ . ومن ذلكم هذه الدعوة الملحّة التي ارتفعت بها عقيرة الشيخ سنة سبع وأربعين من هذا القرن الحافل بملاحم الشعب الجزائري . وقد ارتفعت

عقيرته بالدعوة إلى اتحاد هذه الأحزاب الجزائرية لما شاهد من تفرج الاستعمار عليها وهي تتلاحى ، ومباركته لاختلافاتها وهي تتناحر ؛ فلم يكن شيء أسعد لديه ، ولا أودّ إلى نفسه ، ولا أدهى إلى أثلاج صدره ، من أن كان يرى تلك الأحزاب متناحرة متنافرة متباغضة متلاعنة متلاحية متناقضة : بعضها يكفر بعضها الآخر ، كما يخوّن بعضها ، بعضها الآخر أيضا .

وإننا لنلفي الشيخ يلح في هذا النداء إلى الاتحاد فيخاطب زعماء هذه الأحزاب : «يا قادة الأحزاب ، إنكم مسؤولون أمام الله ، وأمام التاريخ ، وأمام الوطن ، وأمام الأمة ، فاعرفوا قيمة هذه المسؤولية الثقيلة ... إنّ العمل النافع للجزائر ، يبتدئ من الجزائر ...

أيتها الأمة الجزائرية ، ان هذه الأحزاب تستمد قوتها منك ، وأنت الزاد والمدد ، والعدة والعدد ، فاحمليها ، بجميع الوسائل ، على الاتحاد . إنها متكلمة باسمك ، فاحمليها على الاتحاد باسمك . إنها ان اختلفت ، كنت أنت الخاسرة على كل حال ...» (م . س . ، 326).

فآخر هذه المقالة يماثل أولها في حرارة اللهجة ، وحرقة الفؤاد ، وصدق العاطفة في هذه الدعوة إلى الاتحاد . فلم يكن مناص للجزائر من أن تلزم زعماء أحزابها بالاتحاد ،

لأنهم إن تفرقوا واختلفوا ، وتنافروا وتناحروا ، كانت هي الخاسرة الفاشلة .

وإننا لنلفيه يدبج مقالة أخرى في السنة نفسها ، ينشرها في جريدة البصائر تحت عنوان : «دعوة مكررة إلى الاتحاد» ، يستهلها بقوله : «دعونا بالقلم مرات أحزابنا الجزائرية إلى الاتحاد ... ودعونا اليه باللسان في مجالس لا تحصى ، نوعنا فيها العبارات ، وشرحنا الأسباب الداعية اليه من واقعة ومتوقعة ، وخاطبنا بذلك جماعة من المسؤولين وذوي الرأي من أحزابنا ، وتلطفنا في التحيل ، فاخترنا للدعوة كثيرا من المناسبات التي يسهل معها الدخول إلى النفوس النافرة ، والتأثير على العواطف الفائرة ، والتغلب على النزعات الحادة ، واتخذنا من الإسلام والعروبة الجزائرية محورا للدعوة إلى الاتحاد ...» (م . س . ، ص . 328) .

فلم يكن الشيخ إذن يذر فرصة من الفرص تمر دون أن يهتبلها ليدعو فيها أصحابه في النضال من زعماء الأحزاب الجزائرية إلى الاتحاد بالكتاب أطوارا ، وبالحديث والمشافهة أطوارا أُخَرَ . وكان الشيخ يتخذ في تلك الدعوة أسلوب الحكيم ، القائم على التلطف والتزام سبيل اللين والأناة ... ولقد اتخذ من العروبة والعقيدة الإسلامية سلاحيه اللذين

يدافع بهما عن موقفه ، ومتكأيه اللذين يتكئ عليهما في تلك الدعوة الوطنية .

وإذا كنا نعلم بأن هناك ، حتماً ، دعوات أخرى رفعت إلى اتحاد هذه الأحزاب ، صدع بها زعماء آخرون ، في أزمنة متباينة عبر تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ، فإن دعوة الشيخ تستميز بخاصية واحدة على الأقل لا تتوافر في غيرها ، وهي هذه الصياغة الأدبية الراقية الأسلوب ، الأدبية النسج ، فإذا المضمون السياسي الذي هو هي ، لم يحظرها من أن تكون أدبا قبل كل شيء . وإذن فتلك الدعوة الشيخية استطاعت أن تلج تاريخ الأدب العربي الحديث ، عبر جنس المقالة ، من بابه الرّحب . وإلاّ فمن ذا الذي كتب من الجزائريين المعاصرين للشيخ بهذا الأسلوب الأدبي الساحر ، مناديا بوحدة الأحزاب ، حاضّا على جمع كلمتها ، ولَأم شملها ، غيره ؟

ان تراث الفكر السياسي في الجزائر لغني إذن بكادة تاريخية دسمة ، مشبعة ، مروية جميعا . فسياسة الحزب الواحد اليوم في الجزائر نابعة من بعض تراثنا السياسي ، وكأنها نهاية لمراحل كثيرة من التجارب السياسية الفاشلة ... وهل يجوز أن نتصور نصرا سياسيا وعسكريا للجزائر في

ثورتها لو كانت وراءها أحزاب متفرقة ، وأهواء متنافرة ، وأيديولوجيات متلاحية ؟ بل هل كان يمكن لعاقل يعقل أن يتصور اندلاع ثورة التحرير في فاتح نوفمبر على النحو البركاني الذي اندلعت عليه ؟ وإذا كان اتحاد الأحزاب والهيئات جاء بعد اندلاع هذه الثورة العارمة ، فإن الدعوة اليه من قبلها كان قد هيأ الجو السياسي الملائم ، وبلور الفكرية الوحديّة ، فيسّر من أمر هذا الاتحاد الذي أمسى هو القوة الشعبية المتمكنة التي عجز الاستعمار الفرنسي ، وهو القادر ، عن فصم عراها ، فرضخ لإرادة الشعب الجزائري وهو حسير.

3 ـ موقفه من أحداث ثامن مايو 1945:

يتساءل كثير من دارسي الأدب الجزائري المعاصر عن سر صمت الأدباء الجزائريين ، شعراء وكتابا ، عن إدانة مجازر الشرق الجزائري التي ارتكبت يوم ثامن مايو وما بعده من أيام ، وكيف أنهم وقفوا موقفا متخاذلا ، وكيف أنهم لم يرفعوا عقائرهمْ بالتنديد والإدانة ، وكيف أنهم لم يصرخوا في وجه ذلك الاستعمار الغول ولم يستنكروا فعاله ، وكيف أنهم لم ينادوا ، على الأقل وهو سلاح الضعفاء ، بالويل والثبور ، ولا حتى جرؤوا على الدعاء على مقترفي هذه العظائم ، دعوة الضعيف الخائر ...؟ كيف لم يجيئوا شيئا من ذلك وقد كان بوسعهم أن يجيئوه ؟

والحق أننا حين نتأمل هذا الأمر ونقلّبه على وجوهه المختلفة ، ونحن اليوم بعيدون عن ذلك العهد بقدر ما نحن قريبون منه بقلوبنا وعواطفنا الوطنية ، بحكم انتمائنا إلى الشعب ، ثم بحكم امتداد التاريخ الوطني فينا ، وامتدادنا فيه ، فذلك التاريخ هذا الجيل ، وهذا الجيل ذلك التاريخ : لما بينهما من الامتزاج والائتلاف ... نرى بأنه لا لوم على أدبائنا الذين منوا بالعيش على ذلك العهد الشقّي ، المظلم بظلم الاستعمار ، والبئيس بالبؤس الذي صبّه على الشعب الجزائري أسواطا من عذاب غرام ... لا تثريب عليهم إذن ... وإلا فأين ، أولا ، هي تلك الصحف الوطنية التي كانت تصدر في ذلك الشهر ، وأثناء تلك المجازر الهمجية التي قتل فيها أكثر من ستين ألف بريء باعتراف بعض الكتاب الأوربيين أنفسهم ، فيكتب فيها الأدباء الجزائريون ويصوروا تلك الفاجعة ؟ ثم أين ، ثانيا ، هي حرية التعبير التي كانت تتيح لهم أن يكتبوا مؤنبين مدينين ، مستعظمين الأمر ، مستنكرين القال والفعل ؟ ثم من هم ، ثالثا ، الأدباء المعروفون الذين نجوا من السجن فلم يسجنوا ، وأفلتوا من العذاب فلم يعذبوا ، وسلموا من المضايقة فلم يضايقوا ، حتى يكتبوا عن مجازر ثامن مايو ؟ فما من أديب جزائري على ذلك العهد إلا استحال هو نفسه ، روحا ودما ، ولحما

وعظاما ، إلى ثامن مايو : جرّد من سلاحه الذي هو يراعه ، وقطع منه لسانه الذي به ينطق ، وغلّت يداه اللتان بهما يبطش ، وقيّدت رجلاه اللذان بهما يتحرك ، وسملت عيناه اللتان بهما يبصر .. لقد عطّلت في ذلك الأديب الممتحن جميع حواسه ، ولولا بقية من كوامن العواطف الوطنية لفقد كل شيء في تلك المحنة الرهيبة . فما أيسر أن أن يستحيل أحدنا إلى قاض غير عدل ، ينصب نفسه حكما لا ترضى حكومته ، بعد أن يمر الزمان ، وتسكن الفتنة ، ويحضر العدل ، ويغبر الجور ، ويتغير الدهر بمن فيه وما فيه ... ثم يصدر حكمه على من سبقوه زمانا من الرجال دون أن يراعي ملابسات الأحداث المدلهمّة التي منوا بها . ولكن الحقيقة هي غير ذلك ...

فبأي كتاب ، أم بأية سنة ، أم بأي حجّة ندين أولئك الأدباء وننقم منهم إنهم لم يكتبوا عن مجازر ثامن مايو حيث الدماء كانت لا تبرح تفور ، وحيث الكِلامُ كانت لا تفتأ تنضَخ نضَخانا ، وحيث الأشلاء كانت لا تزال طريحا ، وحيث الدموع كانت لا تنفكّ تنهمر من عيون الصبيان والأبرياء ، شاهدة بالظلم ، ومعلنة عن وشكان نهاية العهد الاستعماري بالجزائر .. في الابان الذي لم يكونوا فيه هم أنفسهم ، في حقيقة أمرهم وبحكم ظروفهم ، إلا جزءا

من هذه القضية ، ومادة لذلك الاضطهاد ، وموضوعا لذلك العذاب ، أي أنهم كانوا هم أنفسهم قضية ثامن مايو؟

ولكننا ألفينا أولئك الأدباء ، بمجرد أن ظفروا بالحد الأدنى من حرية التعبير ، وبعد أن توافر لهم الحد الأدنى من المنابر التي من عليها يعبرون ، ولا سيما الصحف السيارة ، فإذا كثير منهم ، وهم على كل حال قليل عددهم ، يدبجون مقالات ، ويقرضون قصائد حول هذا الموضوع الذي لم يبرح يوحي إلى الأجيال الناهضة ، ويؤثر فيها بالإلهام والتخيل .. يعرفون عقائرهم بالضجيج والتأسي على أولئك الضحايا ، وعلى تلك المذبحة البشرية البشعة ، وعلى تلك الدماء التي نضخت نضاخا حتى جرت بها الأنهار ، وأورقت بها الأشجار ، أشجار الحرية .

وان الذي يعنينا ، في حقيقة الأمر من كل هذا ، في هذا المقام ، إنما هو يراع الشيخ الإبراهيمي : أتراه تحرك فهاج ، أم مكث ساكنا فما اهتاج ؟ وان تحرك فماذا كانت آثار تلك المذابح في سيرته ؟

ولعل الإجابة عن بعض هذه الأسئلة مما لا يعسر ؛ فقد تقصينا آثار الشيخ فألفيناه دبج ثلاث مقالات احداهن بعنوان «ويحهم ! ! أهي حملة حربية ؟» ، وذلك سنة خمسين من هذا القرن . ومما يقول الشيخ فيها : «وقعت

حوادث 8 ماي المريعة ، ودارت رحاها في سطيف ، وخراطة ، وقالمة ، وانجلت عن تلك الفضائح الوحشية التي تكفي وحدها لتلطيخ تاريخ فرنسا بالسواد ؛ من تحريق للديار ، وإتلاف للثمار ، ونهب للأموال ، وتقتيل للرجال ، وتذبيح للشيوخ والنساء والأطفال ، وانتهاك للحرمات الإنسانية ؛ مما لو رآه فرعون لافتخر بفوات ما فاته منه ، فقد كان يذبح الأبناء ويستحي النساء ...» (م . س ، 410) .

فالشيخ هنا كعهدنا به ، مشرق الديباجة ، رأي الأسلوب ، دافق العاطفة ، صادق الحسّ ؛ يحاول تصوير موبقات فرنسا في الجزائر من خلال حوادث العشرة الأيام من شهر مايو من سنة خمس وأربعين من هذا القرن ، على نحو ما وقعت ، أو على نحو قريب مما دأبت عليه ، ويقرر بأن ذلك وحده كاف لتلطيخ تاريخها بالسواد والخزي والعار ؛ كما يقرر بأن فرعون لو شاهد ما اقترف هذا الاستعمار المتغطرس في الجزائر لافتخر بأنه كان أعدل الطغاة ، وأكرم البغاة ، وأرق الجبابرة ؛ ربما كان عد نفسه ناسكا من النسّاك ، وورعا من الورعين ، وتقيًا من الأتقياء الصالحين . وهل جاء فرعون شيئا آثما إذا قيس بما جاءه الاستعمار الفرنسي أيام مايو في الجزائر ؟

ولا يعدد الشيخ المآسي ، ويصف الأحوال ، ويسكب الشؤون ، وينادي بالثبور ، ثم يقوم صامتا ؛ بل انك لتراه يهيّج الشعب الجزائري ويدعوه إلى الثوران على هذا الاستعمار الباغي جهارا : «لك الله ، يقول الشيخ ، أيها الشعب المعذب . لقد هنت عليهم حين هنت على نفسك . إنهم ما ضربوك ، إلا بعد أن جربوك . وما جرفوك ، إلا بعد أن عرفوك . وما جنوا عليك واتّهموك ، إلا بعد أن قرأوك وفهموك . فلا تلمهم ، ونفسك فلم ، وغيّر ما بنفسك وهلم ...» (م . س . ، ص . 414) .

ولقد أعجبت إعجابا شديدا بالعبارة الأخيرة : «غيّر ما بنفسك وهلم» . فتغيير ما بالنفس يعني نبذ الخلاف من الوراء ، وطرح السفاسف في جهنم ، وإيثار المصلحة العليا للشعب والوطن ، والتزام الوحدة في العمل والفكر والسلوك ... أما «هلم» ، كما تدل على ذلك معاجم اللغة العربية واستعمالات أدبها عبر العصور الزاهية ، فهي لفظة تعني : تعالوا ، أو هاتوا بما لديكم ، أو أحضروا ما عندكم ... فهي في أي معنى من معانيها تدعو إلى الثورة في هذا النص وتحض على اشعال نارها ؛ فكأنّه قال للشّعب الجزائري ، للجزائريين : تعالوا إلى ثورة فشنّوها على هذا الاستعمار المتغطرس الذي جرح كرامتكم الوطنية ، وأهانكم فهنتم ،

أو غضبتم ولكن الغضبة كانت نقرى ، ولم تك جفلى : فتزعجه وترعبه ... أين ما عرف فيكم من الشجاعة والبسالة والاقدام ؟ أين التواريخ الرائع التي سجلتم ؟ وأين الأيام الخوالد التي كانت لكم ؟ وأين الأساطيل الماخرة التي ملكتم ؟ وأين الحروب المظفرة التي خضتم ؟ وأين العزة القعساء التي تبنكتم ؟ وأين الدول التي قهرتم ؟ أنسيتم كل هذا ، فهنتم وذللتم ؟ كيف نسيتم ؟ ولماذا نسيتم ؟ هلمّوا إذن إلى هذه الثورة التي أوقدتم نارها بحطب أشلائكم يوم ثامن مايو ، فغذوها بالدماء والضحايا حتى لا تبقي ولا تذر : ثورة تجتثّون بها أواصر الاستعمار وأواخيه ؟ هلمّوا ولا تتواكلوا ، هلمّوا الآن ولا تنتظروا ...

ثم نجد الشيخ يخاطب الفرنسيين ويصمهم بالجبن والبغي حين استعملوا جيشا عرمرما ، في قهر شعب أعزل ، فيقول لهم : «أيها القوم ، أين البطولة ؟ ان البطل من يقرع الحديد بالحديد ، لا من يقرع الحديد باللحم والدم ...» (م . س . ، 416) .

ولقد كنا ألفينا الإبراهيمي قبل ذلك بسنتين ، أي سنة ثمان وأربعين من هذا القرن يدبج مقالة أخرى طافحة بالغضب ، دافقة بالسخط على الاستعمار الفرنسي بما

أراق من دماء بريئة ، وبما استباح من حرمات وهي مقدسة ، وبما أحرق من غلات فترك ذويها يتضورون جوعا : «لك الويل ، يصرخ الشيخ في وجه الاستعمار الفرنسي ، أيها الاستعمار !. أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك ، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك ؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام ، ويجوع أهله وأهلك بطان ، ويثبت في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شَعاعا ؟ أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر ، لا في الغنيمة .. فيجد الأب قتيلا ، والأم مجنونة من الفزع ، والدار مهدومة أو محرقة ، والغلة متلفة ، والعرض منتهكا ، والمال نهبا مقسما ، والصغار هائمين في العراء ..؟» (م. س . ، ص . 363) .

فالشيخ ، في هذا النص ، يحاور الاستعمار الفرنسي ، ولكنه حوار الأصم للأصم ؛ فكأن هذا الاستعمار لم يقرأ هذا النص ، أو قرأه دون أن يعيره ما كان يجب أن يأتيه . كما كأنما الشيخ لم يكتب ولم يقل ، ولم يقرّع ولم يسق الحجج كالشهب المحرقات . فهذا التقريع ، في معظم الظن ، لم يقرأه إلا قراء البصائر وحدهم ، ولكنه سجل على هذا الاستعمار شنائعه وفظائعه . ونجد الشيخ يقرع

هنا الاستعمار كيف جزى الشعب الجزائري جزاء سنمار :
أفبعد أن ساهم معه في تحقيق النصر على النازية ، وبعد
وبعد أن أنقذه من المجاعة في بداية القرن التاسع عشر ،
بعد أن كان أول من اعترف بالثورة الفرنسية وقدم لها
قرضا ماليا ، ثم بعد أن ظاهر ، على التخلص من مخالب
الأسبان والأنجليز في أطوار من التاريخ يعرفها ، ويجب
أن يعترف بها لأنها تاريخ مسطور ، بعد كل هذه المواقف
يجيء الاستعمار الفرنسي الى هذا الشعب فيريق دماءه ،
ويستبيح حرماته ، وينتهك أعراضه ، وينهب أمواله ،
ويحرق دياره ، ثم يجيئ من بعد ذلك كله إلى أطفاله فيذرهم
مشردين في العراء : لا أب ولا أمّ ، ولا رحيم ولا مغيث ؟
فهل في التاريخ المسطور موقف أغبن من هذا ؟ وهل في
الشعوب شعب مني بمحنة من جنس هذه ؟

ونحن هنا نتحلل من سوق شواهد ، مما كتب الشيخ
عن هذه المذبحة ، أطول ، مخافة أن يفضي ذلك إلى
تفصيل لا طائل تحته ؛ ذلك بأنّ القارئ الكريم قد يستطيع
أن يعود إلى هذه الكتابات اما في مجموعة «البصائر» الثانية ،
وإما في «عيون البصائر» فيطلع عليها بنفسه ، ويتخذ منها
موقفا شخصيا مهما اختلف عن موقفنا هذا فلن يتناقض ،
في اعتقادنا ، معه . فهي حقا مقالات رائعة لجمالها الأدبي

أولا ، ثم لما تحلّل من سيرة ذلك الاستعمار المتغطرس الذي مني بشره الشعب الجزائري فشقي به أعظم الشقاء .

وهي كتابات للشيخ تبرهن ، لمن كان مفتقرا إلى هذا البرهان ، على أنه كان يعني بالسياسة كما كان يعني بالتعليم والإصلاح سواء .

4 ـ موقف الشيخ من قضية فلسطين :

لم يكن شيئ أشد على العرب ، ولا أفظع محنة عليهم ، ولا أفدح خطبا عليهم ، ولا أعظم تحديا لعصرهم ، ولا أكلم لكرامتهم العربية عبر التاريخ السحيق من قضية فلسطين . حقا ، لقد كانت هناك قضية الجزائر التي استحوذت على عواطف العرب طوال سنوات سبع : فتحفزت حولها همم ، وشقشقت من أجلها ألسنة خطبائهم ، وانصلتت في سبيلها أقلام كتابهم وشعرائهم . ولكن العرب سرعان ما تنفسوا الصعداء ، ورفعوا الرأس عاليا ، ابتهاجا بانتصار الشعب الجزائري على الاستعمار الفرنسي المنهار ...

والحق أن قضية فلسطين قديمة ، دخلت كثير من المؤامرات التي حيكت حولها معجم التاريخ . وقد كان كثير من الجزائريين ، ومنهم ابن باديس في نهاية الأعوام الثلاثين من هذا القرن ، تنبأوا بسقوط فلسطين في قبضة

اليهود وأشباه اليهود من بني صهيون . وذلك ما وقع بعد ذلك بسنوات قصار .

ولقد كان هول الصدمة فادحا على العرب : فمنهم الذي يكتب ، ومنهم الذي يخطب ، ومنهم الذي يقاتل ، ومنهم الذي يحرض على القتال ، ومنهم الذي أصيب بضرب من الذهول فوجم مستسلما لليأس والقنوط ... إلا ملوكهم فقد ظلوا غارقين في لذاتهم ، مخضبين بسراتهم .. وكأن الأمر لا يعنيهم إلا قليلا . ومهما قالوا هم ، وقيل عنهم ، فإن مواقفهم من فلسطين في جملتها وتفصيلها مواقف خيانة انهزامية ، مواقف لم تجلب للعرب إلا الذل والهانة والعار من بعد ذلك ... وما كانت تلك المواقف المتخاذلة إلا خشية على أركان عرش من أن تنهار ، أو الخوف على لذة من أن تفقد ... ومن عجب ، ولا عجب مما ليس منه في الحقيقة عجب ، أن يكون لملوك العرب مشرقا ومغربا يد طولى ، بيضاء ، ندية ، في احتلال فلسطين ، وتقسيمها ، ثم استلابها نهائيا ... فكأنهم جميعا لا ينتمون إلى بني العرب ، وإنما هم آلات جرثومية أنبتها صهيون في بعض العواصم العربية لتنخر شرف الأمة العربية وتدوسه ، وتصيبه بالهزال ، وتسلبه أشهم ما فيه .

وكان منتظرا من الإبراهيمي ، وهو يومئذ زعيم جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين ، وقائد الحركة الإصلاحية بالجزائر أن يمتشق يراعه الدافق فيدبج عددا من المقالات لو جمع لشكّل كتابا قائما بذاته حول فلسطين . ولعل هذه القضية هي التي أوحت اليه بأن يحاول كتابة جنس من أشبه بالمقامات وليس بها ، وأقرب الى الخواطر ولكنه ليسها ، وأدنى إلى المقالة الأدبية ولا ينتمي اليها : لاذع النقد ، قصير النفس ، موقّع الأسلوب ، جزل اللغة إلى حد الحوشية . ولم يكن هذا الجنس المبتدع إلا ما أطلق الشيخ عليه : «سجع الكهّان» . وكأنه رام بذلك إلى محاولة التأثير في تلك النفوس الخامدة ، والعزائم الباردة ، والهمم الغائبة ، فتفيق ولكن هيهات ... !

ونلفي الشيخ في المقال الأول الذي نشره في سنة سبع وأربعين يصور فيه الفاجعة ، وينحي باللوائم على مجلس الأمن الذي أطلق عليه «مجلس الغبن» ، وعلى الأنجليز الذين سماهم «حلقة الشر المفرغة» ، وينتهي إلى تحليل الصهيونية فيقرر بأنها فيما بلا ناس «من ظاهر أمرها وباطنه ، نظام يقوم على الحاخام ، والصَّيْرَفِيّ ، والتاجر ، ويتسلح بالتوراة ، والبنك ، والمصنع . وغايتها جمع طائفة قدر لها أن تعيش وازعا بلا وازع ، وقدر لها أن تعيش بلا وطن ، ولكن جميع الأوطان لها ، فجاءت الصهيونية تحاول جمعها في

وطن تسميه قولا فلسطين ، ثم تفسره فعلا بجزيرة العرب كلها . فهو في حقيقته استعمار من طراز جديد في أسلوبه ودواعيه وحججه وغاياته ؛ يجتمع مع الاستعمار المعروف في أشياء ، وتفرق بينهما فوارق ؛ منها أنّ الصهيونية تعتمد قبل كل شئ على الذهب ، تشتري به الضمائر والأرض والسلام ، وتشتري به السكوت والنطق ، وتشتري به الحكومات والشعوب ، تعتمد عليه ، وعلى الحيلة والمكر والتباكي والتصاغر في حينه ، وعلى التنمّر والإرهاب في فرصته » (م س . ، 485) .

وكأن الشيخ أراد أن يرينا بأنه خبير بسير هؤلاء الذين احتلوا فلسطين فوصفهم على أروع ما يوصفون من الصدق ، سلوكهم وتفكيرهم : إذ لا شئ يعنيهم في الحياة غير الذهب الذي به يبتاعون الضمائر المريضة والأرض السليبة . وذلك ما جاءوا فعلا في فلسطين . فهم استعمار يرتدي بردا جديدا لا عهد للتاريخ به ، من خصائصه الحيل والمكر والخبث والتباكي والتصاغر طورا ، والتنمر والتجبر والبغي والبطش طورا آخر . وما على الله في شئ بمستنكر ، أن يجمع هذه العوالم من التناقضات التاريخية والسياسية في واحد .

ويعرض الشيخ للأشكاليات التاريخية لفلسطين وخيانة مجلس الغبن ، كما أطلق الشيخ عليه بحق وصدق ، فيقرر بأن القانون لو أنصف العرب لقال : «ان ثلاثة عشر قرنا كافية للتملك بحق الحيازة ؛ وقال الدين : ان أحق الناس بمدافن الأنبياء هم الذين يؤمنون بجميع الأنبياء ؛ وقال التاريخ : ان العرب لم ينتزعوا فلسطين من اليهود ، ولم يهدموا لهم فيها دولة قائمة ، ولا ثلّوا لهم عرشا معروفا . وإنما انتزعوها من الرومان ، فهم أحق بها من كل إنسان» (م . س .) .

ويمضي الشيخ في تحليل إشكالية تاريخ فلسطين وتعاقب الأقوام عليها فيلاحظ أن حظها كان «في أدوار الزمن ، وأطوار التاريخ ، وعصور الفتوحات ، حظ العقلية الكريمة ، تؤخذ في ميدان البطولة ممهورة لا مقهورة ، أخذها البابليون غلابا ، وأخذها الفرس اغتصابا ، وأخذها الرومان اقتسارا ، وأخذها العرب اقتدارا . ولا يعد أخذ اليهود لها من كنعان في واحد من هذه ... ولكنها في هذا العصر : عصر الحضارة ، حضارة القرن العشرين ؛ وعصر الديمقراطية ، ديمقراطية العالم الجديد ؛ وعصر الحرية ، حرية الثورة الأفرنسية ؛ وعصر الشيوعية ، شيوعية ماركس ولينين ـ تؤخذ في سوق الأغراض والمنافع الخسيسة بيعا ومساومة ..» (م . س . ، 495) .

ان الشيخ ليقارن بين عهود وعهود ، ويوازن الأطوار بين عصور وعصور ، وينتهي إلى أن فلسطين لم تتعرض لمحنة تعرضها لما تعرضت له في هذا العصر المشحون بالمزاعم والشعارات التي تلحّ بالحرية والديمقراطية والاشتراكية والعدالة وما إلى هذه المفاهيم الجديدة التي تكظّ أقوال الخطباء والزعماء السياسيين دون أن يكون لها ، في حقيقة الأمر ، وجود في عالم الواقع إلا في أطوار نادرة ، وأحوال نـزرة .

ويطفح الغضب بقلم الشيخ فلا يملكه ، ويذره يتدفق على سجيته فإذا هو يسطّر «ما أشأم الصهيونية على فلسطين ، وما أعقّ صهيون لفلسطين ، وما أضل ضلال اليهود إذ يجرون وراء خيال الوطن القومي فيجرّون البلاء لفلسطين ، ويزهقون روح سام بمادة الغرب المسمومة . وسبحان من فاوت بين العنصرين في رقة الحس ، ودقة الحدس ، والأصل واحد . وسبحان من خص العرب بالعامري ، واليهود بالسامري ! »

فالشيخ هنا يتعصب للعرب ، ويتعصب على الصهاينة ويراهم بأنهم لم يكونوا إلا شؤما على فلسطين . وعلى الرغم من أن المنبت ، للعرب واليهود واحد ، فإن العرب اختصوا برقة الإحساس ، ونبل العواطف ، من حيث استماز الآخرون بصفات أخرى ...

والحق أننا لو شئنا أن نتقصي أفكار الشيخ وآراءه حول فلسطين ، ونقرأ كل ما كتبه عنها : فصلا فصلا ؛ لما أمنا أن يستحيل هذا الفصل إلى كتاب .

ولكن علينا ، مع ذلك ، أن نلاحظ بأن لا أحد من المفكرين الجزائريين ، حسب علمنا ، كتب عن فلسطين بهذه الكثافة ، وهذا السمو ، وهذا الروح الدافق ، وهذه الغزارة الثرثارة في المادة حيث بلغت المقالات المدبجات حول هذا الموضوع تسعا ، مما يشكل ، كما أسلفنا القال ، كتابا قائم المئات ، لو جمعت .

والشيخ بهذه الكتابات ، وبهذه اللهجة الدافقة بالإخلاص والغيرة العربية ، لا يمثل في حقيقة الأمر نفسه وحدها ، وإنما يمثل موقف الشعب الجزائري بالأمس واليوم والغد . فلا تزال قضية فلسطين ، بالقياس إلى الشعب الجزائري ، قضية المصير الأكبر ، والشرف الأسمى ، القضية التي ستتهشّم عليها كثير من الأنظمة العربية المترهلة . وستظل فلسطين ، ولو تغير وجه الزمان ، وتحول مسار الشمس ، وتبدل مدلول الجنس ، وأصبحت الأرض سماء ، وأمست السماء أرضا ، واستحال الأموات أحياء ... عربية اللسان ، عربية القومية ، عربية الماضي ، عربية المستقبل ، حتى لو قضي على جميع الفلسطينيين ، لا سامح

الله ، فستظل فلسطين بالقياس إلى الشعب الجزائري فلسطين العروبة إلى أبد الآبدين .

فإذا ألفينا الشيخ يولي كل هذا الشأن لهذه القضية ، في ذلك العهد الذي كانت فيه الجزائر ترسف في أغلال العبودية ، فبما رؤية سياسية تقدمية إلى هذه القضية .

* * *

وعلى أن الشيخ عالج قضايا أخرى ، سياسية ، في كتاباته التي كان ينشرها في جريدة البصائر الثانية . بيد أنه لم يركّز عليها على النحو الذي ألفيناه عليه حول القضايا الأخرى التي عرضنا لها في بعض هذا الفصل . ويمكن ملاحظة تلك الكتابات السياسية ، غير المركزة ، في «عيون البصائر» هنا وهناك .

* * *

فلعلنا بهذه الصفحات التي سقناها حول الشيخ الإبراهيمي أن نكون قد وُفِّقْنَا إلى رَسْم صورة عن مَواقِفِهِ حول أهمّ القضايا التي عرضت للفكر الإصلاحي في الجزائر . وإذا كان الشيخ ابن باديس يمتاز بتفسيره القرآنَ الكريم ، وتأويل الحديث النبوي الشريف ، والبحث في أصولٍ أُخْرَاةٍ لِلْفِقه الإسلامي ... ثم إذا كانت كتابات ابن باديس

تتسم في معظم الأطوار ، بهدوء النفس ، والتحليل غير الأدبي للأحداث والمواقف ؛ فإن الشيخ في كل كتاباته ، وهو ينتمي إلى المدرسة الإصلاحية نفسها ، يمتاز بجمال الديباجة ، وبالجنوح إلى اصطناع الصور الأدبية المشرقة . فكأن الشيخ على تسليمنا بمواقفه الإصلاحية ، أديب فحل ضَلَّ سبيله إلى السياسة والإصلاح والتعليم ... فلا ريب أن الإبراهيمي كان أكبر الأدباء على عهده في الجزائر ... وإذن فما منعنا من تناول هذا المَنْحَى بالمئات ، في هذه الدراسة ؟ منعنا منه أن هذا الجانب لا يُجْزِئُنا فيه تخصيصُ مجرَّدِ فصْلٍ ، بل أولى له أن يُفْرَدَ بمُجلَّدٍ كامل . ولعل ذلك أن يكون في حينٍ ، سيحين . فلأنْشِدْ مع بُثَيْنَةَ في سُلُوِّها عن جميل :

وَإنَّ سُلوِيَ عَنْ جَمِيل لَسَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ ما حانَتْ ولا حَانَ حِينُها

ولأجْتَزِئْ بِهذِه الصفحاتِ إلى حين .

وهـران ، في 19 يونيو 1984

كتب

الإبراهيمي (محمد البشير)،

ـ سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (المقدمة)، طبع المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة (بدون تاريخ = 1936).

ـ عيون البصائر، دار المعارف بمصر، 1963.

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الخطيب)،

إعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، 1963.

ابن باديس (عبد الحميد)،

آثار ابن باديس، تعليق عمار طالبي، الشركة الجزائرية، الجزائر 1968.

ابن تيمية (أحمد)،

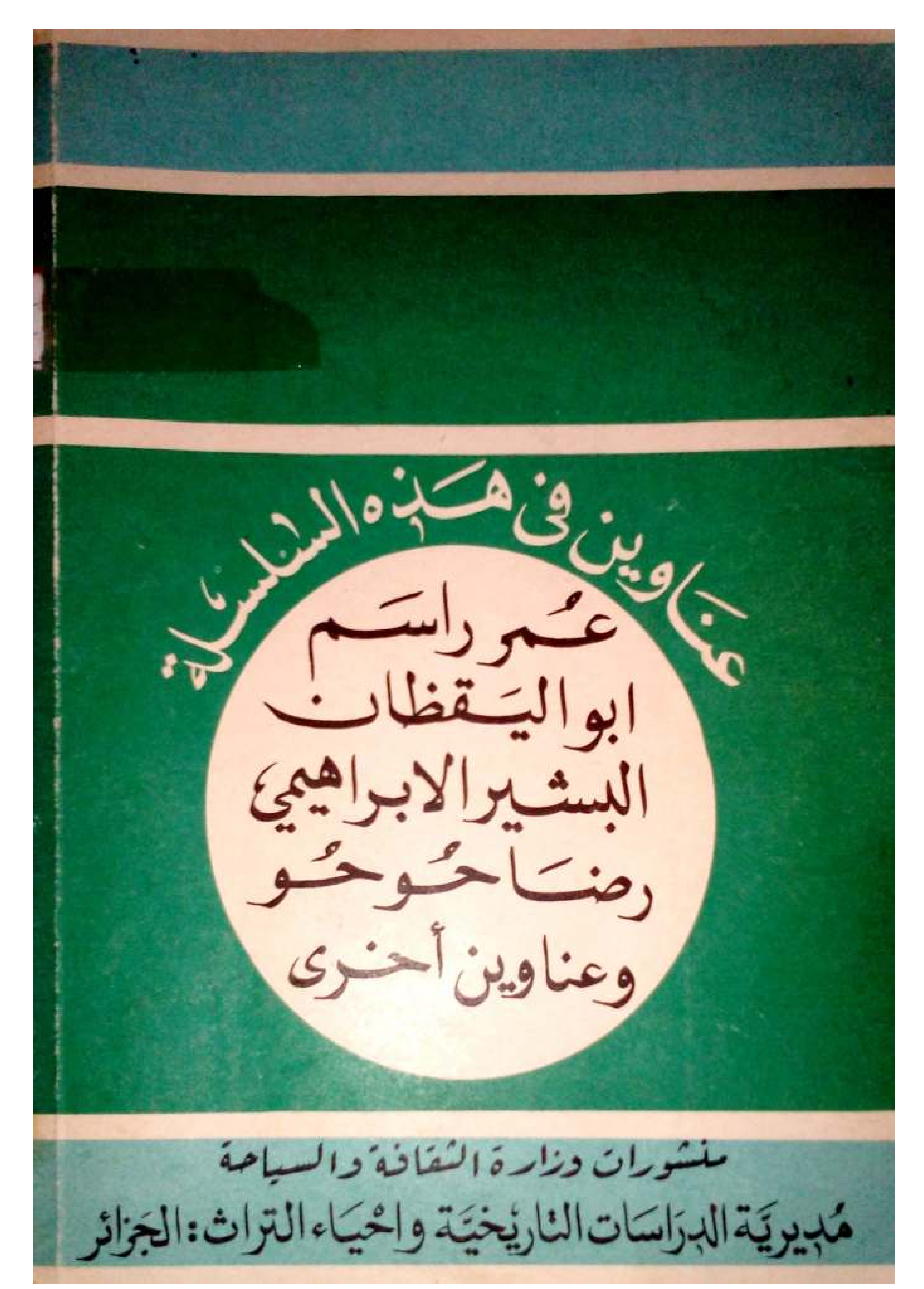
مجموع الفتاوي، مكتبة المغرب ـ الرباط، ط 2، 1981.

الجرجاني والخطابي والرماني ،
ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بدون تاريخ) ، دار المعارف
بمـصر .
مرتـاض (عبد المالك) ،
فنون النثر الأدبي في الجزائر : 1931 ـ 1954 ـ د . م . ج .
الجزائر ، 1983 .
* دوريـــات :
* البصائر الثانية (1947 ـ 1956) .
* الشهاب (مجموعـة) (1929 ـ 1939) .

* * *

محتوى الكتاب

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ــ 1984



عناوين في هذه السلسلة
عمر راسم
ابو اليقظان
البشير الابراهيمي
رضا حوحو
وعناوين أخرى
منشورات وزارة الثقافة والسياحة
مديرية الدراسات التاريخية واحياء التراث : الجزائر